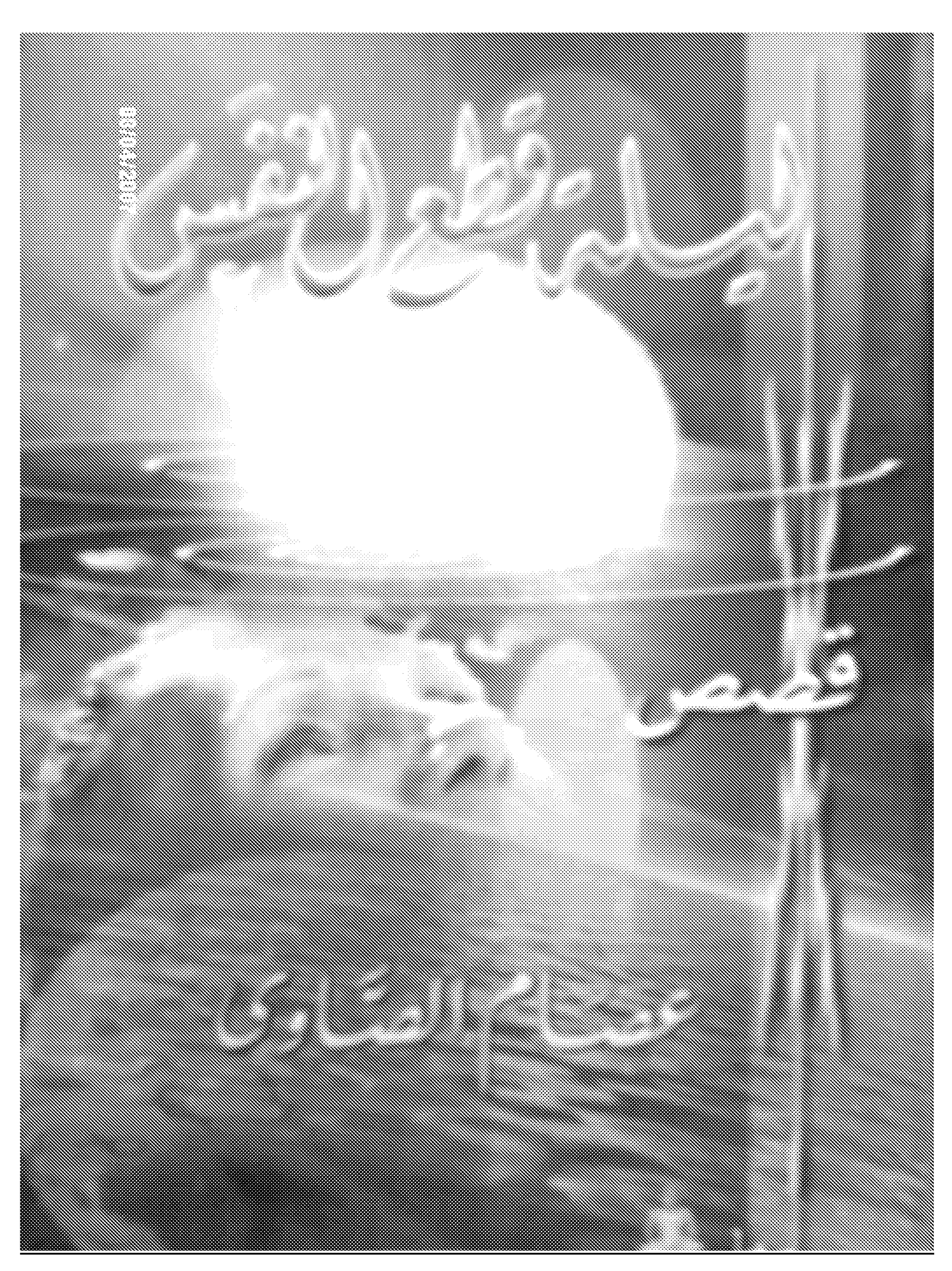

قصص

قصص

ليلة قطع النفس

عصام الصاوى

إهــــــــــــــــــــداء

إلى من عاشوا مشــوار حياتى فأثــروا وجدانى علما وفنا وحياة، ووضعوا الأنوار والإيمان أمام عينى فاهتديت لدربى فمشيته راضيا قانعا. عرفانا وتقديرا لهم جميعا.

عصام الصاوى

أولى الكلمات

ليلة طالت بى ساهرا مع طيفها أهيم. ممنيا نفسى بلقاء لترتوى روحى. تقترب هناء باسمة. لا أصدق يومى. تحدثنى تاركة عينى تجول بين جبينها وخديها وجمال شعرها وقدها. نظراتها الذكية لا تتركنى فى حالى. تحاصرنى وتقيدنى ثم تربطنى إليها سعيدا. أطير من الفرح عندما أمسك بيدى ورقة أكتب عليها عنوانها.

الكاتب

سيـــــف

العصا الطويلة من جريد النخل فى يده، يشهرها حساما يبارز أخاه تحت شـــجرة التوت. الأقدام تثير الغبار عندما يتحاوران أو يطارد أحدهما الآخر. يقف الصـــبية متحلقـــين يشجعونهما فى انتظار أن ينازل أحدهم الفائز بالجولة.
الأب يرقب ما أمامه جالسا تحت الجميزة العجوز فى البعيد. يتناهى إلى أســـماعه أصـــوات الصغار فرحا أو شجارا فيبتسم متذكرا الأيام القديمة تحت النخلة العتيدة.
صاحب السيف البتار جدى الذى فى الموقعة صاح فخورا أنه الغالب، مع أنه هزم فى معركة البارحة من أخيه ذاته.

لم أشهد هذه الأيام ولا التى قبلها لأنى كنت مازال فى صلب الجد الأكبـــر الـــذى تزوج للمرة الرابعة، ثم كان جدى أحد أبنائه وتربى فى حضن القرية، كذلك لم أشهد معـــارك جدى أو أبى .

أيام جنى القطن كانت أعيادا لهم. فى عيد منها تزوج جدى لينجب أبى الذى بعـــد عشرين عيدا تزوج أمى فانتقلت من أصلاب الرجال إلى رحمها لأتلقى الدروس الأولى للحب والحنان.

لما سرق اللصوص دار عبد العاطى نقبوا الجدار ليلا. دخلـــوا وســـحبوا الثـــور والبقرة والحمار من الحظيرة وخرجوا من الباب قبل الفجر ولم يحس بهم أحد، فقـــد كانـــت الدار عند الحد الخارجى للقرية، وسار اللصوص بغنيمتهم بعيدا. حكت القرية بعد ذلك عنهم كثيرا.

جدى والأولاد صـــار هدفهـــم كل ليـــلة أن يدوروا حول القرية للبحث. ينظـــرون إلى الثيران والبقر والحمير، ربما يعـــثرون عـــلى المسروقات فيفوزون بالمكافـــأة، أو قـــد يصادفـــون اللصوص فيدخلون معهم معركة كبيـــرة يهزمـــونهم فيهـــا ويقبضـــون علـــيهم ويسلمونهم إلى دوار العمدة فيصيرون أبطالا.
ينسون اللصوص عندما يستعدون للمولد بجوار مقام سيدى عبد الله، فيبـــدأون فـــى جمـــع المصروف من الأب والعم والخال، وتفتح الحصالات لقضاء ليالى المولـــد بـــين المـــراجيح والألعاب والمأكولات اللذيذة والحلويات.

يعود اللصوص فيسرقون من دار أخرى، ويطلق العمدة زوجته، وتغـــرق أرض الحوض البحرى. كل ذلك متتاليا وهم غائبون فى أحداث المولد الرائعة.

أبى فخورا بأبيه الذى مات من سنوات بعيدة، قال إن من لا جذور له فهو بلا مستقبل. وأنه من بعده حمل السيف ذاته يلاعب الأولاد ويحمى الجرن والساقية والبيت نهارا، وفى الليل يخفيه تحت وسادته لئلا يسرقه أحدهم فيصبح أضحوكة الصغار.

قال أبى أن والده ورث مهارته من الجد الأكبر الذى عاش من مئات السنين حارسا على أملاك البلدة كلها، وصيته يتناثر بعيدا حتى حدود القرى والكفور القريبة وربما البعيدة أيضا.

مع إخوتى والأقران أنطلق إلى النخلة العالية. أقود جيش الصغار الذين أشهروا سيوفهم. نطارد لصوصا وهميين نخال أنهم الذين سرقوا الثور والبقرة والحمار من دار عبد العاطى أيام جدى الكبير. نحاول مطاردتهم حول الجرن الواسع عند الطرف الغربى للقرية فيهربون إلى الجبانة البعيدة.

أحكى لابنى بطولات جدى الأكبر، والتالى، والذى بعده حتى أصل إلى أبى، فينام من حكاياتى. يصحو ليسألنى: وأنت أين سيفك؟
أبحث حولى، وأروح بعيدا حتى أحصل على سيف يشبه سيف جدى من جريد النخل القوى الذى جف تماما وصار صلبا ناعما، وأعود به إلى ابنى ليكف عن سؤاله الدائم.

يدير الولد عينيه نحوي متثاقلا ويلمح السيف الخشبى فى يدى فيهز رأسه لا مباليا، وتعود أصابعه للعب فوق مفاتيح الكمبيوتر كى يعيد الاتصال مع صديق يبدأ معه حوارا .

* * *

ســـــــــامبو

أقفز بسرعة لأتفادى السيارات. أتوقف فى منتصف الطريق حتى تمر عربة أو أكثر. أنطلق إلى الجانب المقابل وأدخل محل قطع الغيار.آخذ طلباتى وأعود بنفس الطريقة كل يوم مرات كثيرة حتى أكاد أسقط من التعب. الأسطى سالم لا ينادى سواى لأشترى. يثق فى أمانتى لأنى أعطيه باقى النقود كاملة.

ابن الأسطى لا يحلو له اللعب إلا حيثما أكون. سامبو يعاكسنى ويعاندنى، ثم يشكونى باكيا. أتمنى لو أن لى أبا يشترى لى الذرة المشوية والبطاطا وغزل البنات كما يفعل الأسطى سالم مع ابنه. يقول أنه يتيم. كيف وهو معه كل يوم؟

سامبو أتى من الخلف مسرعا وخبط كتفى فاختل توازنى لأسقط وتصطدم رأسى. أجد نفسى راقدا فى المستشفى، ودماغى مربوطة، وكلهم حولى. الأسطى سالم، وسامبو، والحاج معروف النجار، وأمى باكية تمسح رأسى بمنديل. أسألهم فأعرف أنى مجروحا . أنظر فى عتاب إليهم جميعا لأنى لا أتذكر ما حدث.

الطبيب يقول: أيام ثلاثة ثم يخرج من المستشفى، الارتجاج لابد من ملاحظة تأثيره. أمى تجلس إلى جوارى وفى حجرها صرة الطعام. تناولنى ورك الفرخة مصممة أن أنتهى من كل الأكل الذى أتت به حتى أستعيد قوتى.
تقول: أنى شقيان من صغرى ويتيم. الأسطى سالم كل يوم يحضر ومعه كل ما أشتهى من الحلويات والطعام، بل ويشترى من داخل المستشفى المشروبات الباردة لى ولأمى.

أمى تقول: سامبو لم يقصد. كان ينظر للجهة الأخرى عندما وجدنى أمامه فجأة فصدمنى، سامبو طيب. اعتبره أخوك.
الأسطى سالم يربت على يدى ويقول: "إنتم إخوات ، هو برضه يتيم زيك."

ترفع أمى عينيها إليه فتحمر وجنتاها، وأرى عينيها تضيق، ويرتفع حاجباها فى دهشة عندما يربت الأسطى على يدها، فتسحبها وهى تتمتم بكلمات خافتة غير غاضبة.
ينظر فى اتجاهي قائلا: "ماتخافش.. يوميتك ماشية لغاية ما تقوم بالسلامة، أنا عارف إن سامبو السبب، كلها كام يوم وتقوم زى الحصان."

تغفو عيناى بينما كلامهم يصل أذنى خافتا وعندما أستيقظ أجدهم انصرفوا عدا أمى جالسة ترنو فى حنان وحيرة. الأيام تمر حتى أخرج إلى بيتنا يصحبنا الأسطى سالم.
كل يوم أجده يأتى بعد أن يغلق المحل ليطمئن على صحتى ويده دائما فيها شئ لأمى ويظلان يتحدثان معا أو يشاهدا برامج التلفزيون وسامبو معهما أو يلعب فى الخارج.

يقول الأسطى: "ياللا يا بطل كفاية نوم من بكرة الورشة".

سامبو حزين. يقول: أن أباه سيتزوج بعد أن نسى أمه. يخاف زوجة الأب. نسمع عنها كثيرا أنها ضخمة سوداء، متوحشة تعض الأولاد، ولا تدعهم يأكلون أو يلبسون. يبكى سامبو، مشفق أنا علية، فتنزل دموعى أنا الآخر.
يقول: "وإنت مالك، أبويا هو إللى ح يتجوز، وأنا إللى ح أنظلم".
أقول: "إنت صاحبى، تعال عندنا لما أبوك يتجوز ".

أنسى وأدخل فى دوامة الصواميل والعدة والمشاوير لمحل قطع الغيار وسامبو يروح حولى بالدراجة يشترى كل ما يريد، وأتطلع ليوم أرتاح فيه ولكنه يبدو بعيدا، فأمى مسئولة منى.
يوم الأحد فى الصباح حضر الأسطى سالم ومعه سامبو، وأمي كانت جاهزة وألبستنى الهدوم النظيفة ورحنا كلنا إلى القناطر الخيرية وأكلنا معا، وأمى أعطتنى النقود لأستأجر دراجة أدور بها مع سامبو فى طرقات الحديقة.

الأحد التالى كنا فى المساء نشاهد فيلما فى السينما وسامبو إلى جوارى. بعد أن خرجنا اشترى لنا الأسطى سالم سندوتشات اللحم الساخن. أحب الأسطى وأخاف منه، فإنه عندما يغضب يسبنى أنا وأمى وأبى، ويده ترتفع لتسقط على أى جزء فى جسدى، أو أتحرك بسرعة لأتفاداها فتروح ضربته هباء فيضاعف جرعة السباب.

يتغيب الأسطى طوال اليوم عن الورشة. يأتى سامبو ليخبرنا أنه مشغول ولن يأتى. فى المساء أقفل الدكان وأعود الى البيت فأجده جالسا بجلبابه الأبيض النظيف، ويداه مغسولتان، وشعره قد صففه بالصابون، وأمى تروح حوله لتغير فحم الجوزة أو تناوله كوب الشاى، هذه الليلة مختلفة هى الأخرى.
الطعام فوق الطبلية شكله غير كل مرة ورائحته شهية. يبدو أن اللحم قد زارنا اليوم. يدخل سامبو فتكتمل اللمة.
يقول الأسطى: "خلاص من النهارده سامبو أخوك".
يقول سامبو : "تقدر تاخد العجلة زى ما أنت عاز".
أمى تقول : أن سامبو سيبيت إلى جوارى في سريرى.أفرح وأوجم ثم أحتار وأخاف، فلست أفهم.

سامبو يقول : "خلاص يا عم أمك مرات أبويا م الليلة، لا هى سودة ولا تخينة، ولا ح تاكل أكلنا". يضحك الأسطى وأمى وسامبو. تتسلل إلىَ ابتسامة، بينما يدى تقبض على كف أمى.

* * *

كـــــراملة

تأخر اختيارى كثيرا.أدقق متخوفا. أنقب وأبحث وأسال وأتروى، ولا أجد بغيتى. القـدر ألقى فى طريقى صدفة ما كنت أحلم بها. لم أصدق أبدا أن يكون حظى بهذا الجمال والـدلال والرقة والجاه. حورية رائعة من نصيبى. انفتحت شهيتى للحياة وأحاطت بى من جديد رائحة الكراملة وأتشبث سعيدا. آن الأوان لأستقر مع ملاك يعيش على الأرض. ظننت أنـى أحيـا هانئا مع زهرة اخترتها وأن عندها نهاية التجوال لباقى عمرى.

احتويتها فى حنان بين ذراعى. قالت وهى تحدف شعرها خلف أذنها وترمـى برأسـها ميادة إلى الوراء هامسة دونما خجل.. لابد أنك عشت عمرا مليئا.
ارتفع حاجبى فى دهشة. كتمت شهقة كانت ستفلت منى. دمعت عيناى. تساءلت داخلى كيف أنها أدركت ذلك؟ كادت أسنانى تدمى شفتى. رحت فى بطء أتلمس فى الأنحاء مغامرة. أبغـى جرعة من نكهة الكراملة بعد أن ضاعت منى.

جارتهم اللعوب دائما فى جعبتها الكثير. تقابل طارق متهللة فرحة كأنما وجدت عسـلا وكنزا. تمسك يده وتشده خلفها برقة ودلال ليدخل بيتها. تقبله فى شوق وحنان ثـم لهفـة وطمعا. فى كل مرة تدس فى فمه قطعة من الحلوى مكافأة ليطيعها فى اليوم التالى. لا تنتهى قبلاتها أبدا ولا لمساتها المجنونة. تزعم أنه مازال صغيرا وتعامله أمامهم كابن لهـا، بينمـا عيناها تلمع فى دهاء ولا تعبأ أمه ولا أبوه فكلاهما غافل مشغول دائما بشئ آخر غيره، وقد يرسلونه عامدين يرونها طيبة حنونا ربما ليتيحا الفرصة لاخوته أن يذاكروا دروسـهم فـى هدوء فيعطيان المجال الأرحب لتمارس حنانها فإنه يعود من عندها سعيدا تفوح منه رائحـة الكراملة التى يحبها.

أتعجب كثيرا عندما تحتضننى جارتنا بنعومة وقوة. كلما ابتعـدت تحـوطنى بـذراعيها وتقبلنى عنوة. أنتهز فرصة وأمشى بعيدا. تلاحقنى مرات حتى أهمد فلا أقاوم، فأفوز بالنجاة وفى فمى حلواها بعد قليل. علمتنى أن ذلك يختلف كثيرا عن اللقاء مع أبى وأمـى وإخـوتى والناس. أدركت أن هذا مقصور عليها وأنها تتمتع بذلك فانتقلت عدوى المتعة إلى عندما خط شاربى.

هكذا عشق طارق رائحة الكراملة التى تغشاه كلما أغرم بواحدة. لم يعد طارق يتعجب، ولا يهمد أبدا. يترك واحدة ليتلصق بأخرى أو يلحق بثالثة. يتزاحمن فى فكره تزيح الواحدة التالية بعد أيام أو أسابيع فهن كثيرات. من سنوات أكتشف أن له قوامـا رياضـيا وطلعـة مقبولة، وعندما يتحدث إلى إحداهن يراها تهيم وتذوب رقة ودعة ثم لا يتطلب الأمر كثيـرا

لتنضم إلى المجموعة التى يعشقها، وإستطاع أن يستثمر مواهبه ليتمع برائحة الكراملة كلما إشتاق.

ولا يكتفى بما يحصل عليه من جارته اللذيذة. يتطلع للأخريات الصغيرات. يقف مع أقرانه بالقرب من مدارس البنات محاولين تحقيق تجاربهم الأولى ويبغى الحصول على الأكثر. تخطو الفتاة مقتربة. يستشعر خطوها فتتحفز جوارحه منتشية. تتشابك الأيدى والعيون ويمضيان معا. تلتهب الكلمات والمشاعر وتتوهج العواطف. تنبعث داخله موجة حارة ورائحة الكراملة تغلفه.

عيناى تروح إلى الفتيات أينما كن. أتقرب منهن فيكون لى واحدة. فى مكان خفى فوق البيوت وفى الشرفات المظلمة والحدائق والحقول أتوق لأن أعلمها الفنون التى تدربت عليها فى طفولتى وصباى. أضع فى فمها قطعة من الحلوى لتتمتع بنكهة الكراملة مثلى.
ينهرنى رجل وجندى وسيدة عجوز. لما دخلت المسجد قال الشيخ كلاما أوجعنى فقررت اعتزال نشاطى. لكن عندما خرجت كانت هناك واحدة رأيتها متلهفة تنتظر، فجاوبتها بشهامة وأجلت توبتى إلى وقت آخر لم يأت أبدا.

لا يفكر كثيرا، فإنه مازال يستقبل ما يأتيه راضيا. ينبهر ثم يكتشف ويقتحم غازيا ثم ينسحب سريعا فى هدوء. هذا الفتى الذى لا يهدأ أبدا. يدق قلبه عندما تخطر أمامه أنثى. يظن أنه أبدا سيسحرها ويستحوذ عليها. يقف شامخا مستعرضا قوامه وملابسه. كلماته تبدو طبيعية لكنها تلفت الاهتمام مؤكدا. ينتهز الفرصة ليتودد ويتعارف ثم يحصل على موعد. يقول كل مرة لقد وجدت فتاة أحلامى.

اللمسات فى ظلام السينما والسيارة ومدخل البيت آخذها مسروقة. أجدها لذيذة فأتعاطاها. أعرف أنهم لا يروننى فإنى أستطيع خداع الجميع متفوقا بمكرى عليهم. أدفعهن، ويتحن الفرصة من خلف ظهور الآباء والأمهات والأشقاء أو الأزواج، فنتمتع بعبق الكراملة الساحر.
يأخذنى الأصدقاء إلى بيوت العزاب مرات. أجد ذلك ممتعا. عندما جرى المال فى يدى كانت لى شقة أمارس فيها شبابى فأتذوق من كل الأنواع ويفتر فى فمى طعم الكراملة. أتوقف مع نفسى أحاسبها متأنيا. أترك فتيات الشوارع والصغيرات فأرفع مستوى العلاقات الخاصة متطلعا إلى بنات العائلات وسيداتها.
صديق يقول علاقات عابرة بريئة. أتخوف فإن خبرتى تسيطر على فكرى. كل شئ ممكن فى الظلام. أنا لا أرى سوى الجانب الذى أعرف.
يتوهمن أحيانا أنى قد أصبحت ملكهن تماما. واحدة بهدوء تفرض القيود ولا تطيق منافسة أخرى. وغيرها تلمح متلطفة تريد كل الأساور والخواتم من سوق الذهب والماس. ثالثة ولهى غارقة فى الأحلام. ورابعة مسيطرة تحاصر بالحب والجبروت تهددنى. كلهن متطلعات

إلى زواج سريع مأمون. متخوفات من أناس رأوهن معى وكلامهم المخيــف، أو تــدعى أن طفلا سيولد لن يعرف أباه، أو أن عارا لحق بها. لا يدرين أنى أمكــر. أكشــف أطمــاعهن. سريعا ألوذ بنفسى إلى ذاتى خارج دوائرهن ثم لا أظلم إحداهن.
أقرر الزواج بعد أن أرهقتنى الفاتنات. أجدنى أشك فى كل واحدة بشكل مختلف عن الأخرى. فى النهاية لا أعثر من تستحقنى لأنى أروم من لا تجربة لها.

تمضى السنوات ويزداد عدد الجميلات اللائى يحبهن طارق، ثم ينخفض مستوى الجمال الوارد. ولا يتعجب فإن المشيب بدأ غزوه، وأن أسنانه تتناقص متوالية فيستسلم.
تقلصت ابتسامة الزمان وانسحبت، ثم تحولت، ليجد المشاكل أمامه تدفعه وتجذبه ليغرق فيها وتستغرق وقته ومجهوده وفكره، بعد أن راح الشباب والقوة ورائحة الكراملة إلى مدى بعيد.

عصا طارق تدق الأرض رتيبة. يتنهد بعمق. يسعل متلفتا حوله. يخلع نظارته ليمســح عدساتها. تروح عيناه إلى بعيد. يده تمتد إلى سجائره تشعل واحدة. ينفث دخانها مرتين ثــم يدكها فى المنفضة. صائحا ينادى زوجته. تأتى متمهلة تتساند على الحائط والباب وتتوقــف. تجلس ناظرة إليه. تملأ فنجان القهوة بأناة وتقدمه. يأخذه بيد مرتعشة قائلا.. يــا ســلام.. كانت أيام.
بدلال ترد عليه هامسة دونما خجل.. أى أيام تقصدها؟؟ التى كانت قبلــى أو الأخــرى التــى بدأتها معى؟
يقول.. أيام لن تعود أبدا. لا يمكن نسيانها.
ترنو فى حنان عجوز وتربت على يده فوق العصا وتردد كلماته.. أيام لن تعود أبدا.. ينظــر حانقا ويقول لنفسه.. هى الأخرى.. لابد أنها كانت لها أيام مثلى.

* * *

هنـــــــاء

عصام

الصاوى

تميل لتضع الأوراق أمامى فتتدلى خصلة رائعة تغطى أجمل عينين. أنظر إلى الجمال الصاعق بأناة. ترفع الرموش لأعلى فتلوح خضرة المروج والصفاء. تهمس بكلماتها فأسمع رنينا وموسيقى. تقف ناظرة إلى بعيد. أراها ملاكا يرنو إلى البشر من علياء. تمد يدها لتأخذ الوريقات من أمامى بأصابع رقيقة فأتمنى لمسة على يدى. أتمتم واقفا بكلمات الشكر وأعطى لنفسى موعدا أنـــى سأحضر فى الغد. أرى ابتسامة حنونا واثقة.

ليلة طالت بى ساهرا مع طيفها أهيم. ممنيا نفسى بلقاء لترتوى روحى. تقترب هناء باسمة. لا أصدق يومى. تحدثنى تاركة عينى تجول بين جبينها وخديها وجمال شعرها وقدها. نظراتها الذكية لا تتركنى فى حالى. تحاصرنى وتقيدنى ثم تربطنى إليها سعيدا. أطيـــر مـــن الفرح عندما أمسك بيدى ورقة كتبت عليها عنوانها.

أجلس إلى الأم الجميلة. أحكى عن أمرى وأزكى قدراتى وعلمى وعـــائلتى. تســـمع متمعنة . تعزز ابنتها بذكاء. تنتهى الأمسية بأمل كبير فى زيارة تالية بعد أسبوع. تمر الأيام كسولة بطيئة. لا أجد الشجاعة أن أزور هناء فى مكتبها. يجب أن أتحلى بالصلابة والصبر.

أمها تقول أنها أعدت لهذا اليوم فبنت طابقا فوق"الفيلا". شرطها الوحيد أن تعـــيش ابنتها إلى جوارها. أوافق على الفور. تتبادلان النظرات. أقاسمهما البسمة والفرحـــة. أمهـــا تضع كفها على يدى بدفء وحنان. تقول نحن محافظون وكل شئ فى موعده. نتفـــق علـــى الشبكة والمهر والمواعيد والارتباطات.
أقول.. طبعا، نعم، وحاضر.
تقول.. ليس لهناء أخوة، وستكون ابنى الوحيد.
أقول.. عشت محروما من أمى، انخطفت منا عندما كنت صغيرا فلم أحس قربها أبدا.
تحتضن يدى فى شغف هادئ، وأنظر فى عينيها لأرى ألقا يشع فى ســـرور، بينمـــا تتشـــبث بيـــديها حول يدى ثم تحتضننى بلطف وتربت على كتفى عندما تودعنى. وأنا أرنو إلى هناء.

تتركنا الأم فنتحادث كثيرا. هناء تقول وأسمع هائما بحب عميق. لا تـــدعنى ألمـــس يدها إلا عندما أصافحها. رقيقة وديعة تجلس بعيدة عنى ما أمكن فتبدو كملاك لذيذ. عنـــدما اقترب تقول اتفقنا أن كل شئ بأوان.

ندور معا نشترى الشبكة والأثاث بعدها الستائر والمفروشات، ثم الأدوات. أجمع من السوق كل ما تشير إليه.
أمها تقول.. نشترى الرجل. أقدم المهر وأقول.. أشترى هناء بعمرى فتضحك بسعادة.
تتوالى الشهور. يمتلئ البيت بالأثاث والأدوات واللوحات والزهور. يقترب اليوم الموعود. تتسارع إيقاعات الطلبات والنفقات. تكاد تنتهى ثروتى الصغيرة.

موعدنا فى المساء لأصحبها إلى سهرة. الأم تفتح الباب دامعة.
تقول..أن هناء راحت إلى صديقة لها بالمستشفى تساندها فى ولادة صعبة. تدعونى للدخول. نتبادل الكلمات والأفكار. تقودنى إلى الركن البعيد. ألمح على الطاولة المنخفضة زجاجة مرسوم عليها حصان أبيض. أتعجب وأبتسم. تبادلنى الابتسام.
تقول..أنها تتناول كأسا عندما يحل الليل.

تمد يدها وتملأ لنفسها واحدا تجرعته فى عجلة. تملأ الثانى وتقدمه لى. أعتذر فى خجل مترددا. تضغط برفق فأوافق. تتوالى الكئووس بيننا. ينزلق الشال من على كتفيها. تجذبه بعيدا. نضحك معا. تثبت نظرتى على فتحة الملابس تظهر قطعة لذيذة من صدرها. تتخابث وتضرب على يدى برفق فأمسكها. تأخذ الزجاجة وتقول هلم إلى فوق، أريد أن أريك شيئا. نتوقف عند غرفة النوم الجديدة.

أحس بيد مرتعدة تخبط صدرى. أفتح عينى لأجد الأم مذعورة. تسبنى صارخة وتدفعنى بعيدا قبل الفضيحة.
تقول.. هناء ستكون هنا فقد تأخرت كثيرا، نذل أنت فقد ورطتنى وأوقعت بى سكرانة، لا أمان لك بعد هذا أبدا ظننتك أمينا. تلاحقنى كلماتها ويداها تدفع الملابس فى وجهى، ثم تدخل فى ملابسها الصغيرة وعيناها لا تطرف كأنما لم تسكر الليلة.

لا استطيع أن أحسب موقفى ولا كيف يتطور. تحفزنى كلماتها للانطلاق خارجا، بينما يداها تلملم الفراش وتعيد ترتيبه. تنظر فى المرآة لتطمئن على صورتها. الدموع تسيل من العينين دافعة أمامها الكحل الأسمر ليرسم خطين إلى أسفل. قلبى يكاد يتفجر من الانفعال. متعجلا أقفز على السلم الداخلى هاربا من صراخها. ألملم ملابسى. هناء تقف أمامى فاتحة عينيها لآخرهما وفمها ويديها معا. تتلقانى بصفعة على الخد. يلتصق لسانى بفمى. أهرول خارجا لا أفكر إلا فى التخلص من الموقف. انطلق بسيارتى إلى بيت أهلى أصطدم بالرصيف وعمود النور وأجرح جبهتى، فأدخل عليهم فى حالة مزرية. يسألنى أبى فلا أجيب.

صديقى يضحك ويقرصنى فى وجنتى قائلا يا طماع الابنة وأمها..! هذا كثير عليــك، لا تفعلها ثانية. آخر يقول ربما سامحتك هناء فإنها لا تعلم إلى أى مدى ذهبت. وثالث يهــز رأسه فى أسف ويمضى دون أن يجيب سؤالى.

أروح إلى بيتهم. تفتح الباب خادمة عجوز تقول إن الأم لن تسمح لك بالدخول أبـــــدا. أمضى قائلا لنفسى لقد دفعت بالفعل ثمن غلطتى. بعد شهور رأيت رجلا يتوقف بســــيارته أمــــام بيتهم وتنزل هناء وأمها ليدخلوا جميعا إلى البيت الذى كنت أظنه سيكون بيتى. أتوارى قلــــيلا لأرقب من بعيد حلما توهمت أنى ضيعته.

* * *

رانيـــــــــــة

تتأرجح السماعة الطبية فوق صدرها متدلية من رقبتهـا. نظارتهـا الدقيقـة تعطـى انطباعا بالثقة والثبات. تسألها الأم ملحة تتأكد من التشخيص والدواء. ابتسـامات تترجـى تتلقاها أول وآخر اللقاء. تغمض عينيها حتى لا تنساق وراء قراءة توسلات العيون وآهـات القلوب المريضة.

كل يوم تختزن أحاسيسهم ومشاعرهم والآلام. تفرزها علـى وسـادتها أول الليـل. تحاسب نفسها عما كان وكيف استطاعت قهر الفيروسات والبكتريا. تقفز إلى مكتبتها تراجع سطورا فى بحث جديد أو تتأكد من معلومة عبرت أسماعها من زميل.

هؤلاء الكبار المغرورون يتخيلون أنهم وحدهم يعرفون. وشهادتها وتقدير دراساتها لا تكفيهم. يطالبونها الرجوع إليهم قبل القرار. ترفض متحدية أن يحدثوا معلوماتهم والأبحاث. يثيرهم تفوقها الدائم.

ينظرون كلهم ويرونها المعطف الأبيض وسماعة وقلم يرسم طريق العلاج. الـزملاء يرونها جزءاً من منظومة المستشفى لابد منه سواء كانت هى أو غيرها. أبوها يراها حمـلا ثقيلا التخلص منه واجب فى القريب أو البعيد. أمها تكاد تثأر منها أنها لم تستطع حتى الآن أن تجذب إليها رجلا. أختها لا تكاد تحس بها. مشغولة بحياتها وخطيبها. ولا تراعى أبدا أن تعامل أختها. تتناسى أنها علمتها كل شئ حتى مع خطيبها. تتجاهلها منضمة إلى الأب والأم والزملاء.

يمسك بيدها. يكاد يقبلها عرفانا وامتنانا. يربت عليها فى حنان ونظرة الاحترام تفيض وتغمرها. يشكرها أنها اعتنت بولده الوحيد. تتمنى أن يفعل ذلك من أجلها فقط. تحس أنهـا تعيش فى فقاعة وحدها تعلو لفوق ليرفعوا رؤوسهم محملقين مشـدوهين يتمنـون القـرب لجمالها وروعتها. يخافون الاقتراب فيصيبهم الرفض والإحباط. تصرخ لداخلها أنا لست قطر الندى أنا مثلكم أتمنى عيشكم. تزفر مللا وغيظا وشوقا. تتوق أن تحطم الأشياء انتقاما مـن النصيب.

صورهم تترى أمامها فوق الوسادة. تلاميذ وطلبة وأطباء وجيـران وأقـارب. كلهـم يتخوفون عمرها كله. والأخريات غارقات فى الحب والأسرة والانطلاق. تعـود لـتحلم كمـا فتيات القرن الماضى بفارس على جواد. تزيح عن الصورة من تدلت من أعناقهم السماعات أو يمسكون المساطر والآلات الحاسبة والذين يحسبون الدقائق والجنيهـات وتضـم معهـم أسرتها. تستبعدهم جميعا الواحد تلو الآخر فلا تجد فى النهاية أحدا يؤنسها. تفيق الجميلـة

من التأملات الليلية والنهارية. تصدم في واقعها. تتجمد الدمعة فى عينيها وترتسم ملامح الجدية والوقار على الوجه الرقيق.

يحبونها جميعا ويخشونها. أغبياء لا يدرون أن خشيتهم سكاكين ومدى ومشارط تغوص فى نسيج مشاعرها وتقطع أمالا لتنزف أحلامها تريقها كلما هنأت إحداهن لخطوبة أو زفاف أو مولود. ترنو أن تلحق بهم يوما. تحسد الممرضة والشغالة وبائعة المناديل التى تحمل طفلا تستجدى القروش. تتمنى لو راحت الثروة والعائلة والجمال والعلم المفروضون عليها أبدا.

ينهرها الرجل عندما صدمته بكتفها عند الممر. تحدق فى عينيه لا تصدق أن هناك من يفعل ذلك. تكاد تتراجع. تحفزه أن يستمر. تتمنى الاشتباك فى حوار قارس لتمسك بتلابيبه. يتدارك الرجل الموقف ويبدى الاعتذار يحدق.. يسهم.. يغوص فى عينيها. تتوقف الكلمات ثم يتلعثم. تبتسم فى رقة يستكثرها على نفسه. لا يصدق أن هذا الجمال يقبل الاعتذار ويبتسم. يفر مسرعا بلحظته الرائعة. تطرق متأسية فكلهم يفعلون ذلك.

تعاتب القدر أنه ينساها. تعاتب الأب والأم والناس. تحاسب نفسها كأنما ولدت فى الزمن الخطأ. تريد أن تخطئ وتجرب ولا تواتيها الجرأة ويمنعها الضمير الذى لا يتوقف عن اللوم. تدعو الله وتصوم وتدور على الفقراء تسد احتياجاتهم وتربت على الأطفال والأرامل.

تتمنى ألا تأثم وجزء منها يشدها أن تجرب فتلوذ بالإيمان ولا يتوقف وجيب القلب ولا إرتعاشات الجسد. تكره صورتها الحلوة وصوتها الرقيق وإطلالتها الباسمة ولا تستطيع الخروج منها أبدا.

زغرودة طويلة ترن مدوية. تفيق من شرودها.. تتوالى دقات الدفوف والموسيقى والحلوى وكئوس الشربات. يضع يده تحت يدها، وابتسامات تزف دبلة ذهبية فى طريقها أن تحيط بإصبعها. تمد يدها حاملة إليه دبلة العريس. تخطو إلى الكوشة. تميل لتقبل أختها. دامعة فى كبرياء تتداخل المرئيات تغمض عينيها وتفتحها بقوة. ليس هذا حلما جديدا. واقع يحيط بها بالفعل. تنطلق من ألق عينيها زغرودتان تحيطان بهما فى فرحة ورضا وإيمان.

* * *

إيقاعـــــات

يتأهب العازفون وعيونهم معلقة بالعصا الصغيرة لقائد الفرقة. عند العـــدد أربعـــة تنساب الألحان خافتة هادئة. إيماءة المايسترو برأسه تعنى الانتقال للدرجـــة الأعلـــى حتـــى تتغير النغمات صاخبة تماما. الفرقة طبولها كثيرة كبيرة تدق الـــرؤوس والآذان والوجـــدان معا. دقة الطبول صاحبتها نقرات الأقدام وتمايل الرؤوس.

عازف البوق يحمر وجهه عندما تطول النغمات وتعلو. تتسارع دقـــات القلـــوب. تلهث الصدور. تنتفض الأجساد. تتلوى الأعصاب مسرعة متمردة على الراحـــة والســـكون مشتاقة للحركة. تعلو الأكف بالتصفيق.

يتقدم حامل المزمار البلدى يختال فى مشية الواثق يرفع مزماره منتظرا الإشـــارة للدخول مع اللحن . تهدأ أنغام الآخرين. يعلو المزمار فى شجن لذيذ نغماته تنساب من حقول القمح والأرز فى الدلتا وقصب السكر جنوبا. يحكى حب بهية ونعيمة، بعدها بطولـــة أدهـــم ونغمات غيرها من بحرى إسكندرية تفجر طاقة الفرح والسرور. يبتســـم العـــازف ويجلـــس هادئا يستجمع أنفاسه.

تتصاعد فى خلفية الألحان دقات الرق والدربكة. يســـتعرض المايســـترو قـــدرات رجاله فى اللعب بوجدان الناس. عازف "الدرامز" يكاد يقفز أمام آلته محدثا الضجيج الكبيـــر المتواصل متناغما راقصا و يهدأ ليدخل الآخرون يكملون الفقرة الصعبة.

أصابعى تتحرك فى تناغم معبرة عن النشوة والانسجام مع اللحن. الراقصة تتمايل فى دلال. أرانى مرتديا ملابس الســـهرة جالســـا فى الكوشـــة جوار عروسى التى صاحبتنى عمرا، أنظر إليها ولهانا أتعجل مرور الوقت.

تقف أم عروسى متحفزة عيناها تدور متتبعة الموجودين ثم تســـتقر نـــاظره فـــى عينى أنا، وتقترب متلصصة لتمد يدا تفرد ذيل الفستان الأبيض مبتسمة فى خجل. فى جـــرأة تعدل من وضع ذيل الطرحة إلى جوار كرسى زوجتى وتدفق النظر فى بؤبؤ عينى مستطلعة.

حماى لا تسعه الفرحة. يصافح مدعوا داخلا إلى القاعـــة يهجـــم عليـــه مرحبـــا ويحتضنه فى فرح غامر ثم يمطره قبلات الذى فاز فى مشـــوار عمرة. بينما أخوها يســـتتر خلف الزحام يدخن سيجارته بعيدا عن عين أبيه ثم ينتهى منها سريعا ليشارك الترحيب.

تقف وحيدة بين الفتيات تتطلع حولها ربما صادفت عيناها عريس الغفلة الذى قـد يدفعه القدر هذه الليلة بعد أن تلتقط الباقة الطائرة، ثم تنـشغل فى قبلات مع سـيدات أخرى لم أعرفهم بعد. كانت هذه الأخت الصغرى لعروسى.

تهب على ذاكرتى أيام ذكريات المغامرات فى سنواتى الجامعية وبعدها محـاولات وتجارب الحب. تلوح وجوهن الباسمة والحزينة لفتيات سمر وبيض طـويلات وقصـيرات، سمينات وأخريات رفيعات، كلهن لم تدم علاقتهن معى لأسباب عادية، والأخريات التى دامت لى معهن أيام بمشاعر المراهقة اللذيذة المجنونة. أتذكر قبلاتى المسروقة فى ظلام الـسينما والطرقات واللمسات المسروقة وسط الناس فأبتسم.

عروسى الرقيقة تنزلق نظراتها إلى قدميها بعد أن ضبطها ترنو إلى فـى حنـان. ألمس يدها برفق لتقف فتصاحبنى المشوار القصير الطويل إلى مائدة العشاء تحت أضـواء آلات التـصوير تسجل حركة أيدينا وأعينا للزمن الآتـى.

يصر المطرب أن يجذبنا إلى منتصف القاعة مصـفقا بيديـه ليحفـز النـاس أن يحرجوننى. يريدون أن أرقص وعروسى وسـطهم. يظهرون فرحتهم بمشاهدتنا والعـرق يغمرنا، بينما رباط العنق يخنقنى والحذاء الجديد يؤلم قدمى من بداية الليلة. أتمنع لكن الكل يغلبنى وأجد نفسى وسطهم أتراقص فى غفلة من حيائى.

أرى المشهد كما لو كنت بعيدا. تختفى النغمات فلا أسمع شـيئا. العـازفون مـا يزالون يعزفون بقوة. الناس حولى مبتهجون بالذى هم فيه. أحس أن الموسيقى لا تصل إلى أذنى وأن بها خللا فأشدها وأدلكها، لكنى وحدى الذى لا يسـمع. تنطلـق قـواى، وتلهـث الأنفاس ويندفع الدم فى عروقى حماسا وتتداخل المرئيات مع الـذكريات. أرى مـن حـولى جميعا فى المدرسة والسوق والمسجد والميدان يرقصون مع وحوش الحديقـة وطيورهـا. أتمايل فى انطلاق بين الأشجار والزهور والآكام والابتسامة مطبوعة على وجهينا فى سعادة أظـنها ستدوم.

* * *

أشتاتـــــــاً...!

دقات الدف الكبير ترافقها نقرات طبلة الدربكة، يحف بهـــا زخرفـــات شخشـــخة الحلقات النحاسية للرق الصغير، مع وشوشة نغمات الطنبور، تلمها رنات الصاجات الراقصة تحفز الأجساد المتوترة للتمرد على الجمود. الصوت البشرى المدرب على الغناء الوحشـــى يتدفق هادرا إلى الآذان دافعا للتصفيق وهز الأعطاف ودبيب الأقدام فى نشوة طاغية. تخفت الإضاءة وتعلو الهمهمات، وتتدفق الأحاسيس ونترنح كأنما محضرون مسيرون فى الدائرة، راضين طواعية، قادمين من البعيد نرجو الخلاص فى روحانية متشبثة.

تتدافع الدقات. تتزايد الحركة. تتلاحق الأنفاس وسط عبق البخور المعطر. تـــدور الرؤوس والعقول إلى أول الغيبوبة اللذيذة. ننساق نحو كتلة الأجســـاد المنتشـــية. يتملكنـــى شعور جارف مفاجئ بالسعادة والخفة. أذوب فى اللحن والنغمة والرنـــة والدقـــة والبخـــور. أروح بعيدا بين الماضى والحاضر، سكرانا بلا شراب، شبعانا بلا زاد، زاهدا بلا أمل. يتملكنا الهوس رجالا ونساء فلا نبالى. أجدنى ممتنا لصديقى الذى هدانى لسعادة كنت غائبا عنهـــا. أدمنت الطقوس كل يوم وصارت شغلى الشاغل، لأسعد بحياتى معهم وفيهم.

أخذتنى الحياة لأعيش بعيدا، فوجدت هنالك الموسيقى المعدنية تـــدوى مجســـمة مـــن الأركان. على نغماتها تتبدل الإضاءة الخافتة بألوان الطيف تنعكس على الأسطح نجومـــا ودوائـــر ومربعات تقاطعها خطوط أشعة الليزر تنصب على الأبدان. تنبعث من الجنـــب نـــافورات الضـــباب الصناعى برائحة ناعمة فتوارى الأشخاص فى لحظات مسروقة. يتحركون بتلقائية كمـــن يلقـــون الهموم من أجسادهم فيبتعدون عنها. عيونهم الملونة تتطلع إلى لا شئ، والشفاه باسمة. تـــتلامس الأيدى والخصور بسرعة أو رفق. على الموائد أصناف الشراب فيسكرون ثم يقومـــون يفرغـــون طاقتهم فى الرقص المجنون حتى يهمدون فيستريحون قليلا، وينضم رواد جدد ليزيدوا من الصخب والمرح.

مكبرات الصوت لم ترحمنى حتى أجبرتنى حواسى للانصياع التلقائى فدخلت، وسرعان ما كنت منهم، أنثنى وأفرد طولى متأرجحا أركل الهواء وألكمه مبتسما وعيناى تنظر للمجهول ولا يعبأ بى أحد. تشملنى الراحة والسعادة منطلقا بنعومة فى عالم وردى أطأه بإختيارى. صرت جزءا من الكل المتراقص نتطوح بعفوية على النغم. يزداد دبيب الأقدام مع نقرات الترومبيـــت والجـــاز والجيتار تضمها ألحان الأورج الحانية. أحس بها بدائية وحشية محببة. نتلامس ونتباعد ونتنهـــد لاهثين، نحس الفوران يشمل دماءنا وعقولنا، ويصبح الجميع أصدقاء راقصين، فأروح كـــل ليلـــة لأنتشى راقصا.
لما عدت من سفرى كنت مشتاقا. يدفعنى الحنين لأن يحتوينى عبـــق البخـــور أو نغمـــات الجـــاز فاحترت وتركت قدمىَّ تأخذنى فهى تعرف الطريق.

* * *

عسل أسمر

تقف الصغيرة فوق الكرسى جوار المائدة. تمد يدها بلقيماتها إلى الطبق تغمسها.ترفعها إلى فمها باهتمام ولهفة. النقط تسيل فوق يدها ومفرش المائدة. تلوك اللقمة فى تلذذ واضح ويدها الأخرى ترفع لقمة جديدة. أنادى لأنبهها. تقول دعنى آكل يا جدى.

عمتى السمينة البيضاء تنادى. تشير بكل أصابعها أن آتيها. تتسع راحتاها بعرض صدرها ثم تفتح ذراعيها لآخرها. يضئ وجهها بشرا وإبتسامة فرحة تشدنى أن أجرى لألقى بنفسى فى حضنها الواسع .
أدفع بوجهى فيها ورائحة الدقيق والطهى مع بقايا عطرها تقتحمنى وتملأ رئتى. تضمنى بقوة. كفيها يربتان على جسدى بحنان، بينما شفتاها تطوفان بقبلاتها على وجهى الصغير.

متشوقة تسألنى بإلحاح عن أبى وأمى واخوتي كأنما لم تكن ضيفتنا ليلة الأمس. تلقمنى فى فمى حلواها التى أفضلها عن كل شئ. تقول تعال جنبى ياعسل أسمر. أتعجب من النداء. تقول أحلى شئ فى الدنيا العسل الأسمر وتضحك بمكر وتخبطنى على فخذى بتلقائية تقول ستعرف ذلك عندما تكبر.
أقول لماذا أنتظر؟ أنا أحبه كل يوم. تملأ جيبى بالبندق والملبن والتمر وتضع فى يدى النقود قائلة اشتر ما تحب.

أعود لأمى بعدما آتى على كل ما فى جيبى وما اشتريت. تقول عمتك ستفسدك. تجعلك تتناول الحلوى قبل الغداء و العشاء. هكذا ستكون ضعيفا. يضحك أبى قائلا لا تقلقى عليه هو كالعفريت لا ينقصه شئ.

آخذ اخوتي معى لنذهب إلى عمتى اللذيذة التى نحبها كلنا. تنادى من بعيد عسل أسمر وصل واخوته معه وتفتح ذراعيها كما كل مرة. تضع أمامنا طبق العسل وحوله الفطائر نلتهمها فى شوق كأنما لم نأكل طعاما أبدا.

ندخل مطبخها. نراها تعد العسلية التى نكاد نموت من فرط شوقنا أن نتذوقها. نراقب يديها تشد عجينة العسل فوق رخامة المطبخ المنثور فوقها الدقيق الأبيض، وتنهداتها مسموعة ألحظها عندما تلسعها حرارة العسل الدافئ. بيدها تضع فى فم كل واحد منا قطعة تصبره بها حتى تنتهى ويدها الأخرى تخفى قطعة كبيرة فى وعاء أسفل المنضدة. تشد يدى بعيدا عندما أحاول الحصول عليها وتنطلق منها صيحة مرتفعة خجلى فلا أفهم. تقول أنت يا عسل أسمر قل لأمك أن تأتى قبل العصر. قل لها عمتى تحذرك من التأخير.

بعد طول صبر عمتى تظهر أمامنا ومعها قطع العسلية. تحكى لنا كيف تصنعها وعيناها تبرق فى زهو واعتزاز وفرحة، وابتسامة ماكرة تتسلل إلى شفتيها خلسة وعندما تلتقى أعيننا تخبط كتفى ضاحكة فى مكر لذيذ فأتعجب.

تتلفت أمى حولها فى حيرة. تتطلع إلى أبى أن يأذن بالزيارة. تظهر على وجهها أمارات الفرح، وتقوم لترتدى ملابسها ولا ترضى أبدا أن أصاحبها.
تقول لقد كنت هناك أنت واخوتك، وهى تريدنى وحدى. يحاصرها إلحاح اخوتى أن يروحوا معها. أمى ترفض وتمضى متجهة للباب بدوننا.
أقول يا أمى قولى لها عسل أسمر يسلم عليك وسيأتيك فى الغد. تهز رأسها توافقنى وتمضى باسمة.

أقوم لأجاور حفيدتى. أمد يدى نحو طبق العسل. الصغيرة تدفع يدى قائلة لقمتك كبيرة يا جدى ونضحك معا. أضع اللقمة بالعسل فى فمها فأحس حلاوتها على لسانى.

* * *

الغـــــــــالى

أدخل بيت صديقى فى المساء. أجدهم حزانى واجمين. أتحاشى السـؤال ربمـا أحرج أحدهم. بعد قليل أتوقع مشكلة كما فى بيوت أصدقائى. أحتار عنـدما تـدخل زوجتـه صامتة تحيينى بهزة رأسها وتجلس مطرقة. أسمع الصغير يبكى بحرقة. الابنة تقول أنها لم تتخيل أن هذا سيحدث يوما وعيناها تدمع فتنصرف قبل أن تدخل فى البكاء. أخوهـا الأكبـر يدخل من الخارج مرهقا قائلا أنه بحث فى كل مكان وسأل الجميع ولم تكـن هنـاك إجابـة تساعدهم.

تتقافز علامات الإستفهام والتعجب أمام عينى. لم يحك أحدهم المشكلة. لاأجـد بدا من الانصراف فور أول بادرة بعد فنجان القهوة. عدت متوترا تدور فى رأسى مشـاهدهم وأحوالهم. أتعجب أنهم لم يشركوننى البتة فى فكرهم ولم يسألونى المشورة.

أتعجل الساعات المتباطئة. أعرف أنى لن أرتاح إلا بعد الإطمئنان عليهم. أمر على بيتهم فى المساء. أجدهم كما تركتهم بالأمس. بعضهم مازال بملابسه وصـديقى طـال شعر لحيته فبانت حزينة هى الأخرى.

قالت زوجة صديقى. لقد كان الوحيد فى هذا المنزل الذى يحس بى ويدرك مـا أريد قبل أن أنطق.
أردف ابنه الكبير .. لا ياأمى إنه يفهم نظرة عينى ونبرة صوتى. لقد كان صـديقى الوحيـد.
أخته أضافت أن ذلك شئ مستحيل، فلابد أن يبحثوا عنه ثانية كل يوم طوال النهـار والليـل فربما فقد الذاكرة أو الطريق.
صديقى تنهد متحسرا وقال أن أولاد الحلال كثيرون، وربما صادف أحدهم فيأتى به إلينا.
اكتفى الصغير بالدموع هذه المرة وعيناه تجول بيننا كالتائه وأصابعه تتشابك وتنعقد ثم يفكها ، ثم تروح نظرته بعيدا. يتركنا إلى حجرته لأسمعه يبكى والكل لا يترك لى مجالا أن أتـدخل بكلمة للمساعدة أو لجبران الخاطر.

هبوا جميعا عندما رن جرس التليفون ليكتشفوا أنها مكالمة عادية ويعـودون إلى جلستهم الكئيبة. يتملكنى الإحراج والغيظ. أقف مستعدا فيمدون أيديهم فى تراخ للتحيـة ويجلسون. أروح حتى الباب وحدى عازم ألا أسأل عنهم أبدا لا بالحضور ولا بالتليفون.

أنقطع عنهم أسبوعا لأجد نفسى ويدى تضغط فوق زر جرسهم مساء الخميس التالى. ارتاحت ملامحهم قليلا وإن بقيت حزينة. يتحركون كالآلات بوجوه باردة. يدق جرس التليفون فلا يتحركون. يدق الباب فيفتحه الصغير.

أسمع صرخة عجيبة جعلتنى أقفز من فوق الكرسى واقفا أعـدو فـى إتجـاه الباب. يصيح الصغير .. لقد جاء. كان عند جدتى وأخفته عنا. تعال إلىّ. إمتدت يده. يتحلـق الجميع وأنا وحدى تركونى خلفهم محتارا. تدخل الجدة تتوكأ على عصـاها وتجلـس علـى الأريكة.

تمد قدميها أمامها معتذرة تقول "معلهشى يابنى السلم قطع نفسى".

يقول الابن الأكبر: أنا أشك فيك ياجدتى.

تقول: لا يصح أن تفكر هكذا. أخته تنظر إلينا جميعا غير مبالية بما يحدث.. الأم ترمق الولد الصغير فى حنان وتقول: تكفينى إبتسامته، لكن يجب أن تأخذه للحمام لابد أنه كان فى مكان غير نظيف.

صديقى غاضبا يرفع يده محذرا وصوته يعلو ينبههم أن يراقبوا الباب دائما حتـى لا تتكـرر المأساة.

صبرى ينفد، وأتلفت إليهم مع حوارهم أحاول الفهم.

تبتسم الجدة تشجعنى أن أبدأ معها حديثا.

يدق جرس الباب مرة تالية فلا يستجيبون. يلح الطـارق . أسـمع صـريخهم جميعا كأنما تجمعوا معا. ضحكات وقهقهة وكلمات متناثرة لا أفهم منها شـيئا. أراهـم مـن فرجة الباب يتدافعون والبواب واقفا مزهوا يبتسم فى حماس وقامته الضخمة تمـلأ الفـراغ خلفه. يمد الرجل يده فى جرأة وبصوت واثق يطلب الإكرامية فقد عثر عليه بنفسه بعد بحث دام أسبوعا كاملا ويومين فوقه لم يعمل فيها إلا للبحث والسؤال.

تختفى الدموع وترتاح الملامح فتعود البسمة إلى الوجوه. ينطلق صديقى يحكى عما لاقاه اليوم فى عمله، وزوجته تقدم لى حلوى صنعتها بيديها. والجـدة هادئـة ترقـب فرصة تحاول الدخول فى الحديث. أولاده الثلاثة جالسون على السجادة يراقبون بدء التعارف بين "روكى وموكا" الكلبة التى أحضرتها الجدة إنقاذا للموقف، بعد أن قرر صديقى الاحتفـاظ بها فإنها هدية الجدة العزيزة.

***

رغبـــــــــة

لما اكتشفت أن زوجى على علاقة بسيدة تملكنى الندم أنى فرطت فى زوجى الأول وأحسست بفداحة خسارتى. بعدها توالت اكتشافاتى لعلاقاته النسائية، ووجدت أنها دائما عميقة وطويلة المدى وأتوقع أن تمتد لسنوات قادمة فقد تخصص فى نوع من النساء وبرع فى تطويعهن. يكسب من واحدة مالا والأخرى علاقات تجارية، والثالثة توصله لمن فى أيديهم مفاتيح أحلامه، ثم يأتى ليبتسم فى ملائكية يطلب الحنان والرعاية.

عندما واجهته كشف القناع وادعى الغضب وراح يؤدبنى لتدخلى. لم أفكر أن أستسلم، ووضعت مفتاحا جديدا لباب الشقة حتى لا يدخل عندى، فقد استطعت يوما أن أجعله يبيعنى شقته التى نسكن فيها وأصبح لى اليد العليا، وتركته *ينقل* حاجاته بعيدا. لم يطلقنى على فعلتى وكنت أود ذلك، لكنه كان الأمكر وبدأ يقايضنى على الطلاق مقابل الشقة. بالطبع استمرت المفاوضات حتى انتهت بالصلح وحصل على مفتاح من جديد، وأعاد ملابسه وأدواته إلى شقتى وبقى فى الركن يفكر ويدبر.

كنت موقنة أنه لم يعد الملاك الذى أريد، بعد تناطحنا أمام الناس والمحامى والقاضى والشهود، ليبقى بيننا السواد، بينما الابتسامات على الوجوه لزوم تسيير الأيام والمواقف، والنار تحت الرماد. ثم أنى لا أزال أحس بخسارة فى كل مرة أصطدم فيها بما يفعله، وأقارنه بالأول، وكل منهما له سوءاته آلتي أكرهه من أجلها. تحولت أيامى كلها نارا، شاعرة بعقده ذنب كبيرة تجاه أولادى، فقد شتتهم بينى وبين أبيهم، ثم تجاه نفسى أنى ظالمة للجميع، ثم ينتابنى شعور التفوق أنى حصلت على مرادى من مال الأول وشقة الثانى وأنهما لم يستطيعا أن ينالا منى وتتملكنى النشوة.

أرتد للشعور بالوحدة والخوف بعد أن يكبر الأولاد ويروح كل منهم لحياته، فى الوقت الذى سوف يتقدم فيه سنى يصاحبنى عدم الأمان، غير مطمئنة لأفعاله فإنه لا يلبث يكافئنى كل شهرين أو ثلاثة بعلاقة جديدة اكتشفها ببساطة، ويتعمد أن يعرفنى إياها ممعنا فى إذلالى، ثم لا أجد مفرا من المواجهة فأصرخ ويتجمع الجيران حولنا. يقول ببساطة أن أعصابى متوترة، ويلمح لهم أنى فى طريقى إلى مستشفى الأمراض العقلية، فقد عاصروا أحداثنا وزيارات البوليس والمحضرين والاستجوابات علاوة على المعارك اليومية والأسبوعية والشهرية فأجن من جديد. أعود فأحس أن الله يعاقبنى. ثم أشعر أنى مظلومة. فبعض السيدات يتزوجن مرتين أو ثلاثا، ولكن النكد كله لى ولا أتوقع الخير فى الأيام القادمة وأفكر أحيانا بالانتحار وأخطط لذلك ليتهمونه بقتلى ثم اهتديت أن أظل أفكر فربما أجد حلا أو يقصف الله عمر أحدنا رحمة.

***

تملكنى الرعب أن أموت وحيدا فإن أولادى لابد أن يأتى يوم يتزوجون فيه ويروحون لبيوتهم مهما كان إغرائى لهم أن يبقى معى أحدهم فى شقتى. كان هاجسى الأكبر أن بيت المسنبين سيكون مأواى بعد قليل.إذا لابد لى من زواج، فلأبحث عمن تروقنى وأبدأ من جديد. بعدها راح يتملكنى الندم وشعور الإحباط كلما نظرت فى وجه السيدة التى اخترتها لتملأ بيتى بعد رحيل زوجتى.

رحت أختار فلم يكن أمامى إلا البحث بنفسى حتى لا أكون أضحوكة وسط معارفى والأقارب. لم أوفق مع الصغيرات المتطلعات لزواج سريع مأمون ومتين. كان همهن مالى . توسمن أن تحت القبة شيخ عظيم. لكن قبتى كان تحتها شيخ تخطى الخمسين بسنوات وأفلست جيوبه بعد تربية أولاد وعلاج زوجة رحلت. الأخريات اللائى فاتهن قطار الزواج لم يكن حظى معهن جيدا فلم أجد من لها القبول، فكل منهن لها ما ينفرنى. ذات المال كشفتنى. والجميلة راحت تملى شروطها، والتى نصيبها من الجمال قليل أبدت امتعاضا من شكلى وعمرى.

عشت أتجول منطلقا فى عالم الباحثات عن الزواج فى مغامرات لم تكن مأمونة ولا محسوبة، فنالنى قليل من التهكم والإهمال وكثير من اللامبالاة دفعتنى الى المزيد. استمرأت الانطلاق فى أحضان وبيوت حتى لاحت لى فرص كسبت فيها مالا أو قبلات أو علاقات سهلت أشياء انتهت بعد بدايتها، فمن ترض بعجوز فى عمرى لابد أن تكون مثلى فلا يريحنى فكرها وأعمالها وناسها.

واحدة أعجبتنى اشترطت أن يكون أولادى بعيدا عن حياتها تماما، رضيت رغم أولادها الملتصقون بها وكما لم يبق أمامى فى الكون سواها، فرحت أربط نصيبى بها. وجدتنى أقبلها كما هى. استسهلت البداية بعد طول تجوال وسياحة مع الناعمات وكانت هى الأنعم. حلمن ببيت صغير وزواج أولادنا ، ونسيان ما كان من عمرى لأبدأ فصلا جديدا من حياة.

***

منصور جارى الذى كنت أظنه طيبا عاقلا. فاجأنا بفرقة عمال الصيانة لتجديد شقته، فراحوا فى أسبوعين يقلبونها بهمة لتصبح شيئا جديدا. لم يصبح سرا أنه سيتزوج ورأينا العروس. شئ ما جعلنا نتخذ منها موقفا مترقبا. البداية لم تكن مشجعة بعد خلافات زاعقة مع أولاد منصور. انقلب الحال إلى توترات متلاحقة مع تدخلات الشرطة والنيابة وأوامر القبض على منصور او ابنه الذى شكاه.تحولت القضية إلى الزوجة الجديدة عندما انفجر

الصراخ على سلم البيت يتهمها بالاحتيال لتحوز وتبيع الشقة وأقسم أنه لن يطلقها حتى الممات.وفى اليوم التالى كانت أشياؤه كلها خارج بابه.

اختفى جارى القديم أياما ثم عاد معها ذات ليلة فى الظلام ولمحناه ينزل من سيارتها وتوقعت ان يكون قد عاد مهزوما. زوجتى قالت كيد النساء ماله آخر. ولما مرت أيام وليالى قالت زوجتى أنها رأته على السلم يدفعها لأسفل لتسقط أمامه على الدرج فتنكسر ساقها ويجرح جبينها فتركها على الفور ومضى. وهرع الجيران والبواب ونقلوها إلى مستشفى. واختفى الرجل ثانية ثم ظهر شامتا كأنما حضر من سفر بعيد ولم تثبت عليه أنه كاد يقتلها فى تلك الليلة.

يثير عجبنا فى كل مرة أن كل مهما يتربص الآخر ثم يقبله لتبدأ معركة جديدة. احترنا مع الجيران فى تفسير ما يحدث حولنا. قالت المرأة لإحداهن ذات مرة أن الرجل يستحق كل ما تفعله فهو هلاس إنتهازى خباص. ومنصور قابل جارا فى الطريق وقال أنه ما ندم فى عمره إلا مرة واحدة. زوجتى سألتنى بعدها بليلتين متى أحسست الندم فى حياتك ياحبيبى الغالى؟ ولم تنتظر ردى ومضت فى طريقها إلى الشرفة. نسيت أنى حلمت مرة أنى سأتزوج ثانية من فتاة تعيد لى الشباب وظل حلمى مكبوتا لم أحكه لأحد.

***

شاطئ الكريستال

يغمرنى الماء البارد. تتملكنى رعشة لذيذة تذكرنى بشاطئ المعمورة فأشتاق للوطن. المظلات أمامى تقف فى صف وحيد متباعدة تحتها أشياء الناس. أمامها يتمددون وقد دهنوا الأجساد بالزيت يتمنون لونا برونزيا.

تمر أمامى فتيات رائعات. أراهن كأنما خلقن فى التو واللحظة من حليب صاف طازج لذيذ، أو من قشدة مخفوقة بمربى الورد مع فراولة. أقرأ على وجوههن البراءة والانطلاق والإحساس بالحياة. تفيض أجسادهن بالحيوية الدافقة. يبهرنى الجمال.أجملهن ترمقنى بدلال. أدير وجهى إلى الجانب الآخر خجلا من عينيها القويتين. أحس نظرتها تخترقنى. أبادر بالتفاتة نحوها.

تبتسم وتترك صاحباتها مقتربة على مهل تحادثنى. طبعا لا مانع لدى أن تضع أشياءها إلى جوارى. الباقيات يضعن معها القبعات والنظارات. ينطلقن ويعدن من البحر مبلولات ضاحكات.

أين فتاتى؟ تدور عيناى فلا أراها. يدان رقيقتان فوق عينىّ مفاجأة أن تفعل ذلك. أمسك اليدين فتقترب وتجلس إلى جوارى تاركة إياهن فقد اختارتنى. يحدثنى صباها وجمالها وحسنها ورونقها. أروح بعيدا إلى طفولتى بشارع الترعة البولاقية، وأتذكر ماجدة وجاكلين وأنجيل. كلهن كن سمراوات. فى الجيزة كانت هدى وهناء وهند. لماذا كلهن يشتركن فى حرف واحد؟ سلوى وهيام وآمال كن معى فى رحلة المراهقة. بعضهن سمراوات والباقيات بشرتهن بيضاء، وكلهن لسن كهذه. ما اسمها ياترى؟

اكتشفت فجأة أنى أستمع لما تقول ولم أسألها. قالت: جيس..أنا جيسيكا. أهمس لنفسى لماذا لم تأتنى قبل ثلاثين سنة؟ ربما اختلفت الأمور عن الآن. شئ آخر. مغامرة لا أقدر عليها بعد سنتين فوق الستين على شواطئ المصيف بأمريكا. نعم مازلت شابا مرموقا. يكفى أنها اختارتنى من كل الشاطئ الممتد. هذا يسعدنى تماما.

تسافر عينىّ إلى قريب. تدور على أجساد الباقيات. كلهن لها ميزة. جيس لها كل الجمال والخفة. تضحك من كل كلماتى المتكسرة ، والجمل الطويلة التى أشرح بها أفكارى. تختصر المسافات وتقول الكلمات فى جرأة وبساطة. ستكون فى المساء على الشاطئ ثانية لنرقص فوق الرمال الناعمة والموسيقى الصاخبة.

أقول لم أرقص من قبل. ترد هامسة ليس الرقص مهما تماما.ساعة وحديث من طرف واحد لا ينقطع. إيماءات وكلمات عاجزة عن ترجمة المعانى وهى راضية. ربما أنست فى أبا أو جدا. أو تحكمها الكترا الخبيثة التى ترمى الفتيات الجميلات فى أحضان أصحاب العمر الطويل. موسيقى رقيقة آتية من بعيد تهدهد أفكارى وكلماتها فتصمت قليلا.

أمامى كل الطبيعة. أرى الألوان بدرجاتها. نسيم رائع وشمس دافئة، والماء متدرج باللون الأزرق الصافى حتى ما لانهاية عبر خليج الشيكولاته. لابد أنى أحلم أنه هنا ستكون الجنة.

ذرات الرمل البيضاء تبرق متناثرة فوق ساقيها أراها تضوى فى ضوء الشمس كحبات الكريستال. تنام يدها فى كفى. يرتاح كتفها فوق ذراعى. تنزلق ببطء لتستقر رأسها الجميلة فوق فخذى مغمضة العينين تواجه الشمس. حديثها لا يتوقف فى تغريد مستمر. عيناى النهمتان لا تهمدان. لا تلبث أن تجرى غربا وشرقا. تروح إلى القمم وتنخفض مع الوهاد، وتعبر شمالا وجنوبا فى سياحة ماكرة. أتوقف عن اللهاث. أغلق فمى مدهوشا. أسمع الكلمات مكتفيا بضغطة فوق أصابعها أنى أوافقها تماما على ما تقول.

تكاد ساقى تنفجر عندما تقلبت جيس الجميلة لأرى وجهها فى مواجهتى تقريبا وادعا مطمئنا. يدى عابثة تزيح خصلة شعر شقية مالت لتخفى جمال العيون. مستسلمة للمسات تغمض وتفتح رموشها الطويلة. أقول لنفسى بعد الساعة لابد أن يكون لقاء على وجبة خفيفة أو مشروب، ثم فى المساء الرقص فوق الرمال بعدها نروح. إلى أين تأخذنى أفكارى اللذيذة؟ .. معقول..!!

- ملامحك تريحنى. أحب شاربك الأبيض.
- وأنت جميلة كملاك.
- أسمع ذلك دائما.
- عندهم حق بالتأكيد.
- أين صديقك الذى كان معك..؟
- راح إلى حجرته. سوف يعود.
- لماذا تسألى عنه؟
- سمعتكما تتحادثان. أحب لهجتكم الشرقية.
- ثم..؟
- عرفت على الفور أنكما من بلاد الشرق الأوسط.
- وأنت..؟
- أنا من إسرائيل. أدرس الكمبيوتر فى الشركة الأم بفلوريدا. قالت ذلك ويدها تضغط يدى برفق.

يدى هذه هزت خط بارليف. زلزلته وقلبت عاليه إلى أسفل. فعلت ذلك مع قادتى ورجالى قبل ثلاثين عاما . توترت أصابعى. فى هدوء جذبتها لتربت على الوجنة أن ترفع رأسها عن ساقى. قمت واقفا. أحسست أنى عملاق كبير أنظر إليها من فوق راقدة على شاطئ الكريستال. رأيت جبينها ارتسمت عليه نجمة أعرفها جيدا.

انكمشت جيس الجميلة جالسة تتطلع متسائلة فى اندهاش حقيقى .. لماذا..؟ قلت لن يستقيم الأمر بيننا. لن تفهمى الآن شيئا. ربما تدركين فيما بعد. أنا مصرى.
قالت – ولو .. ماذا فى ذلك؟ نحن لم نكد نبدأ بعد..!!
أسمع نداءها يتردد بينما أمضى بعيدا ابتسم فى فخر وإعزاز وثقة.

* * *

أيـــــــــام

تمر أصابعى فى حركة دائرية بخفة. يضغط واحد منهـا وتتـوالى الضـغطات متموجة فتحس يدى الدفء والطراوة والنعومة معا. تنبعث النشوة من أصـابعى إلـى كـل أعصابى. فعلت ذلك بعينىّ عندما انغرست نظرتى عند السرة العارية وراحت شمالا وجنوبـا تدور فى كل مساحة الشريط العارى الذى انحصر بين القميص والبنطلون لتلك الفتـاة التـى وقفت تحادث صديقها جوار منضدتى فى مستوى أنفى جالسا.

لم تأبه الفتاة ولا صديقها ولا الآخرون حولنا. صـديقى خـبط ركبتـى تحـت الطاولة قائلا بالعربية كسفتنا وسط الناس يا أخى. منبهرا كان فمى مفتوحـا وعينـاى. لـم ترمش الجفون. سجلت اللقطة واللحظة أقارن كل يوم عشته هناك من زمن.

رحت إلى الشارع الذى فيه كل شئ. لم أكن ذلك الجلف الذى ينكـب عنـد أول نداء. رحت أسير ويدى فى جيبى كأى صعلوك متمرس كالذين حولى. تقمصت داخلـى دور الشرير الصياد والسيجارة على طرف شفتى، ونظارة سوداء تحجب نصف وجهـى. أنظـر أتوقف وأختار لا مباليا، ثم أترك لأنتقى.عند نهاية الشارع كانت حصـيلتى أن الكـل فـوق المستوى، وقد إختبأ كل ما دون ذلك خلف الأبواب.عدت لأحدد هدفى خائفا من كل شئ كمـا حذرونى من المفاجأة والعنف والسرقة.

جلسنا على مقهى عند الناصية. اخترت المقاعد فى الخارج فوق الرصيف أتيح لنفسى فرصة أكبر. قفزت واقفا عندما رأيت فتاة الشريط العارى المتوهج. تركـت صـديقى وحده وسرت فى أثرها أحاول اللحاق بها دون جدوى. قبل أن أفقد الأمل كانـت يـد رقيقـة تقبض على ملابسى خلف الرأس كما يمسك المجرمون فى الأفلام.
قالت ماذا تفعل هنا؟ لاشك أنك مجنون أن تسير هكذا. اندفع الدم إلـى داخلـى فـى هبـوط فترتخى أعصابى وعضلاتى لأنهار واقفا حتى لامست ركبتـى الأرض بينمـا اليـد الرقيقـة تسندنى فى رفق. سمعتها تقول رأيتك فى المطعم بالأمس وأنت تنظر إلـى. لـم يكـن فـى مقدورى أن أكلمك فقد كان معى صديق. حظى جميل أن قابلتك، وحظك رائع لأنقذك.

فى مطعم قريب راحت تسخر وأنا صامت أحس الخجل والعار بعد أن ضـبطتنى ضعيفا لاأستطيع الرد. رأيتها رقيقة صغيرة وادعة تبدو كقطة أليفة. سألتها بعـد أن راحـت المفاجأة، ما الذى أتى بك إلى هذا الشارع الرهيب؟

قالت – أبحث عن عمل. كل يوم أنا هنا.
– يجب أن أعمل فى أحد الأماكن التى لديها ترخيص.
– سأجتاز فترة التدريب، ثم إذا نجحت أستمر معهم.
– كل شئ هنا منظم بحساب. لم ترنى بعد وأنا أرقص. تعال الليلة.

- دائما الخطر موجود.ثم حدقت فى عينىً ببراءة محكمة.

قلت - لماذا لم تبحثى عن عمل آخر؟

قالت - أنت لا تفهم جيدا. أنا أريد المال. سأنال كمية كبيرة فى وقت قصير.

- أحتاجه بسرعة.
- حبيبى فى السجن الشمالى للولاية.
- يمكنه الخروج لو دفعت له الكفالة.
- يجب أن يدفعها هو .. أليس مذنبا؟
- نعم .. ولكن..!
- ليس لديه المال الكاف.
- وهو ألا يحبك؟
- نعم .. يحبنى.
- هو فى السجن من أجلى.
- تعارك مع صاحبه لما ضبطه يغازلنى فجرحه بالسكين.
- يتحمل نتيجة عمله.
- وأنا ألست مسؤولة عنه؟
- سأدفع لأنى أحبه.
- تحبين مجرما..؟
- ليس حبيبى مجرما.
- ياصديقى لابد أن تعرف أن للحب أنواعا.. قد لا تفهم ذلك.

***

اللون الغامق

أسير مع صديقى أتلفت مشدوها بما حولى. نقف أمام مبنى قديم. لما دخلنا لاحظت الهدوء والنظافة. كل شئ وضع فى مكانه بعناية يلمع ربما ليلفت النظر. إضاءة رائعة وأنغام خافتة تأتى من بعيد فى وقار. أتطلع إلى صور الأنهار والحدائق والأزهار فوق الجدران العالية. ندوس على السجاد الثمين. خطواتنا بلا صوت حتى نصل إلى القاعة الكبرى فى المواجهة.

كان الناس جالسين فى صفوف يتطلعون إلى الرجل فوق المنصة. جلست بينهم متسائلا. كان حديث الرجل لطيفا ينساب فى نعومة. يلقى إليهم بابتساماته والكلمات الرقيقة فى حنان. يلقى بنكتة ويضحكون. خلف الرجل بعض توابيت الموتى..! يعدد مزايا كل منها. يشرح نوع الخشب والألوان والكسوة الداخلية. يحكى عن وزنه وقوة تحمله وجودة المقابض المفصلات والقفل علاوة على الغطاء الذى يمكن فتح نصفه فقط عند النظرة الأخيرة. يتوقف عند النوع الجديد ذو الصمام. يشرح لنا أنه يسمح بمرور السوائل والغازات الزائدة إلى الخارج ولا يسمح بمرورها فى الإتجاه العكسى لضمان الجفاف المناسب. يضغط الرجل على زر صغير فتتغير على الشاشة الصور متتالية تعرض أشكال الأنواع والإمكانيات.

راح الرجل يتنقل بين عملية التجهيز والتجميل والملابس والتابوت، إلى أن وصل لأنواع الزهور والشموع والروائح التى ستكون. يحكى عن الربوة التى إختارها بعناية مشرفة على التقاطع الرئيسى، أمامها محلات المأكولات الجاهزة والهدايا ولعب الأطفال، حتى يتمتع بالرحلة الجميع ويعودوا للزيارة مرة تالية قريبة.

قال الرجل أن الأعمال التى يديرها تخضع للحسابات والضرائب وأنه يمسك بدفاتر منتظمة، و يغطى تكاليفه بقروض من البنوك. وعلى العملاء ان ينتظموا فى دفع أقساطهم. وإذا حل أجل العميل قبل أن يسدد ماعليه فإن عقده المبرم يسمح بسداد الباقى من الميراث.كان العرض التالى مغريا للجميع فقد أعلن أن العميل إذا إشترى الآن فسوف يحصل على مدفن آخر مجانى يهديه لزوجته أو لصديق أو يبيعه مرة تالية.

يشرح الرجل فلسفة الدفن باستفاضة. يعدد مزاياه. يهاجم برفق عملية إحراق الجثث وما تحمله من بعض القسوة. يقول أن الحرق هذه الأيام بعد تقدم التكنولوجيا أصبح سهلا. درجة حرارة الفرن أصبحت عالية جدا تزيد عن ألفي درجة. تستغرق العملية دقائق محسوبة. يفرغ الفرن من رماد الجسد المحروق ويوضع فى قنينة نحاسية أو من الفخار. باسما حكى عن حانوتى فى بلد قريب توقف فرنه فجأة وإحتار فى تشغيله، وإهتدى أن يدفن عميله فى حديقة منزلة، وسلم أهله بعضا من التراب الناعم أتى به من حديقته. عندما

أكتشف ذلك وحققوا معه فوجدوا أن لديه مئة وثمانين جثة أخرى تحت أرض الحديقة الخلفية لمنزله.

وإستمر يحكى عن عادات الموت الغريبة. قال أن فى الفلبين عندما يموت أحدهم فإن الخبر لابد أن ينتشر حتى يودع الميت أصدقاؤه والأقارب والزملاء والمعارف. يهتم الكل بذلك جدا. وعندما يكون الميت عزيزا فإنهم ينتظرون حضور الجميع، وقد يتأخر البعض.
يقتلون الوقت بلعب الورق والمراهنات. يمر يوم وراء الآخر وينهمكون فيما بدأوه فيخسر ويكسب الحاضرون شاغلين غرف المنزل وعند الجيران الذين يقدمون المكان والمكولات والمشروبات بأضعاف الثمن للاعبين الحزانى. الحانوتى يهتم بأن تظل الجثة فى حالة جيدة طوال الوقت ويحقنها بالمواد الحافظة والمبردة ثم يجهزها للدفن أخيرا بعد أن كسب كل من كان فى واقعة الموت سواء بلعب الورق أو بيع الطلبات أو تأجير المكان والحانوتى معهم. قال يجب أن تميزوا الطيب فإن العروض التى يقدمها أكثر إنسانية.

تدخل القاعة ممثلة مشهورة. تأخذ مكانها بجانب الرجل يناقشها وتحاوره لتختار المكان ونوع الصندوق وتعلن عن العطر الذى تحب أن يضعوه لها. تبتسم قائلة أنها ستدفع مقدم الأتعاب فقط. يقول الرجل جادا أن الورثة لابد أن يسددوا باقى الأقساط وأن هذا سيدون فى العقد. عجوز بصوت واهن يعترض أن اللون الغامق للتوابيت يذكره بالموت عندما وضعوا جده فى واحد منها قبل سبعين عاما.

***

ميـــــراث الــــــــدم

يفيض النهر فى موعده كل عام من قديم الأزل. الجدود اختاروا أماكن القرى والنجوع، وكبرنا فوجدناها محلها. يرتفع النخيل عاليا فى تجمعات تحيطنا. ننتظر موسم البلح بفارغ الصبر. يأتى الفيضان حثيثا بلون الغرين الرائع ليسقى أرضنا الشراقى من عام مضى.

ترتفع المناسيب. يسهر الفتيان جوار النهر يراقبون. تشتد ضراوة المياه المتدفقة تغسل المجرى من أدران وأحداث السنة. الرجال مستعدون كما كل مرة. يخزنـــون الأجولـــة والشكاير وقوالب الطوب وربطـــات الحطب وفـــروع الشجر. يعرفـــون مـــا يجـــب لتقويـــة الشواطئ.

هادرا يقتحم ماء النهر عبر الجسور فى ظلام الليل الحار. تغرق الزروع والســكك والعتبات وجدران البيوت. تسبح الحيوانات الصغيرة حتى يحبسها التيـــار فـــى الأركـــان أو تموت. تتطاير شرارات الأفران تنحدف على السطوح الفقيرة فتحترق بيوت النـــاس ليكـــون الخراب مزدوجا.

أرقد على خط النار مع الزملاء فى ميدان الرماية. أقبض على سلاحى بقوة. أشده إلى كتفى. أصوب نحو الهدف جيدا. أوقف تنفسى. عقلى صاف تماما وأجذب الزناد. تعلمت هذا الفن الرفيع عندما كنت مجندا فتفوقت حتى أصبحت الأول على قناصى لواء المشاة.

قتلت برصاصاتى من الإسرائيليين خمسة جنود، فأصدر قائد الكتيبة أمرا بـــالترقى لأكون برتبة الرقيب، وصرت أضع على ذراعى الأيمن شرائط ثلاثة رائعة أتيه بهـــا. فلمـــا أجدت وقتلت خمسة آخرين وصاروا عشرة، قلدنى قائد الفرقة نوط الواجب علـــى صـــدرى وسلمنى براءة التقدير. رصاصاتى الحبيبة جادا أرسلتها من موقعى شمال وجنـــوب النقطـــة القوية فى مواجهة قواتنا شرق السويس شرفا وعرضا وحقا ساطعا.

يتجمع الرجال فى المقهى الوحيد. يشربون الشاى الغامق المركز بطعـــم المـــرار. يشدون أنفاس الجوزة بنهم يثبتون لأنفسهم شيئا. الشوارب مبرومة متطلعة لأعلـــى دائمـــا يعظمون ذواتهم. السهر والسمر وحكايات شاعر الربابة ترفيه كل ليلة عندما لا تنعقد الموالد فى النجوع حولنا. فى نهاية الليل يمضون إلى البيوت وكل منهم طوح بالشال فـــوق الوجـــه لثاما. يخفى فى سيالته الفرد أو المقروطة، يغطيها بالحرام الصوف. الصغار يحملون العصى والنبابيت علامة القوة والرجولة والإرادة.

النسوة يتجمعن فى ليالى الحنة أو الزفاف عند دار العروس يجهزنها، فيفرحن ويصدحن بالزغاريد والأهازيج والمواويل. فى المناسبات الحزينة يغيرن الكلمات واللهجة ويصاحبها العويل والدموع، يعددن مناقب الميت والأسف على ما راح، وكل تتذكر موتاها لتبكى بحرقة أكثر من الباقيات تجامل أهل المتوفى، ثم كشف الرؤوس وشد الشعر وتعفير الوجوه وصبغها بخطوط النيلة الزرقاء أياما ثلاثة علامة الوفاء، وربما يمزقن الملابس أو يرتدينها مقلوبة إصرارا وإمعانا فى الحزن والزهد عن أمور الدنيا بعد الحبيب.

دائما يستغرقون فى طقوس الأسى أكثر كما لو كانوا يستعذبون الألم. أرى صرامة الوجوه، وتجاعيد على الجبهة وفوق الخدين لتصير الملامح أكثر جهامة للرجال والنساء فالكل واجم صامت حزين أغلب الأيام.
يمر العام بعد الآخر كل منها يحمل هموما، تثقل النساء قبل الرجال. يجتمعن ليثرثرن. يتمتعن باسترجاع تاريخ من راح، ثم يتوقفن تماما عند سيرة الثأر. لا يتركنها إلا عندما تحدث مصيبة جديدة. يترصدن الأحداث ويسلسلنها ثم يسببنها ويعقدن المحاكمات لتصدر الأحكام باسترداد الثأر الجديد.

جدتى سليمة أم أبى عجوز جفت بشرتها بعد أن لوحتها الشمس القاسية، ثم صار صلبا مشدودا كما قلبها. أسمعها توحى لأمى بالحزن والعار، فإن ثأر أبى مضت عليه العشرة الثانية وكادت الثالثة تتم، ودمه لم يبرد ولم تسترح عظامه فى قبره ، تحلم بابنها كل ليلة يطلب الثأر.

حبهان أمى الحنون الصارمة. نسيت الابتسام من زمان، تحلب وتعجن وتطبخ وتغسل الملابس. ترعى الحقل وتحاسب الرجال عن أجورهم والتاجر عما اشتراه من المحصول. تغلق صندوقها على مالها وملابسها وهمها، ثم تجلس أمام الجدة فى المندرة الكبيرة تتلقى جرعة الليل من الأحزان وموال الدم.

الأعذار كلها تلاشت من حولى. أنهيت تعليمى ودراستى بالكلية، وعدت من البعثة. استلمت عملى بالبندر. أرجع كل يوم قبيل المغرب فارتدى الجلباب فوقه العباءة وأضع اللبدة. أمسك النبوت أو الزقلة لأسير وسط الرجال.
يقولون: كبرت يا رجل على هذه الشومة. يجب أن تحمل مقروطة أو مسدس ذلك أكرم، فأضحك إلى داخلى فلن أقتل أحدا.

حبهان هذه السيدة الطيبة أمى، تدور حولى تلملم أشيائى، وتضع الملابس النظيفة المكوية فى مكانها. تتردد نظرتها متراوحة بين النبوت والزقلة. تجلسنى أمامها.
تقول: خجلانة منك أمام النساء. تحكى عن جدى الكبير وشواربه المرفوعة وهيبته وسط الرجال، وعن أبى الذى فاقه قوة وسطوة وكرامة بين الناس. تبكى بدمع جاف بارد كيف

قتلوه. ومتى دفنوه وما احتدوا للآن. النجع ينتظر الثأر على يد الابن الوحيد الذى بيده شرف العائلة. تأتى بالمقروطة، تقدمها لى فأتراجع. تبصق على الأرض بقوة قائلة: جبان، لن أفضحك الآن. أبناء عمك ينتظرون.

أمسك يديها، أحتضنها أمسح فوق رأسها. أشرح أملى ومستقبلى ومسؤولياتى فى الحياة. تجلس أمامى ساهمة واجمة بلا حركة كتمثال إنسى سحبوا منه الحياة.
تمر الأيام، تعودنى أمى وتغاضبنى. تحفزنى للانتقام، تذكرنى بوسام شرف الثأر. لم يكن هذا ما تفعله فى الأيام الأخيرة فقط، بل حاولت حفره فى ذاتى كل أيام حياتى. صار ذلك همها فى الدنيا، وجدتى سليمة تغذى نارها كلما سنحت فرصة الحديث، بينما أزداد إصرارا، وأحنى هامتى كلما قابلتها فى بيتنا الواسع الذى هو جزء من دار الجد شملول الكبير.

يؤرخون عندنا الأيام بفيضان النهر، ومواعيد موالد أولياء الله، ومواسم جنى المحصول، ومقتل الرجال على مدار الثأر. أسمعهم يقولون أن أبو إسماعيل تزوج ليلة مقتل الشملول، وأنه قتل بعد عبد الراضى بشهرين. تتوالى التواريخ فى مجالسهم المسائية والصباحية وأسماء الرجال الذين ضاعوا، ودم كل منهم واجب على واحد من أسرته، لتدور الأحداث فتأخذ من كل فريق أكبرهم مقاما لتبرد نارهم وتسكت ألسنة النساء فى البيوت والرجال الجالسون فوق المساطب.

يجتمع الرجال فى الدوار الكبير. يتلقون العزاء فى زوجة العم. ينصرف أهل القرية بعد صلاة العشاء. يتحلق الرجال حولى فأجدهم يرددون كلام أمى. أجلس وسطهم غير قادر على إقناعهم بالقانون أو المنطق أنى آمل أن أتزوج فيكون لي بيت وزوجة مثلما لهم، وأتوق لأن يكبر أطفالى ليصبحوا رجالا على عينى كما يتوقون.

يقولون: رجل خرع. وهكذا انتقلت مهمة الثأر لأولاد العم. وقسرا يجلسوننى معهم يخططون. كل ليلة كما فى العمليات العسكرية يدرسون الخصوم وحركتهم بين البيوت والدواوير والزراعات والأسواق. يختارون الهدف، ويحددون الزمن كمن يصدرون أحكام الإعدام.

ابن العم الأصغر متحمسا يقول: عمى يموت قدامه عشرة، لو قتلتم واحدا، سأكمل تسعة بعده. لا يشفى غليلنا رجل واحد بعد صبر ستة وعشرين عاما.
واحد منا يأتى متخفيا بليل. ينادوننا جميعا. يقف وسطنا يزف إلينا خبر خصومنا الذين سيحضرون فى الغد جلسة المحكمة لسماع الحكم فى القضية الأخيرة. عمى يقول: نحن لا نحتاج للمحاكم، نحن قضينا، وننفذ ما نقول. يقرون الفعل ويقسمون.

يمر نهار أسود كامل. كل رجالنا مختفون أو صامتون، عدا واحدا سافر خلفهم إلى البندر يتابع ويرسل المعلومات بالتليفون. يشرق وجه عمى مبتسما، وينادى أبو الفرج قائلا: خلاص، بعد ساعة عند الجسر.
عمى مشيرا نحوى يقول: ولأن معنا قناص السويس حامل الوسام سنفوز بهم. تتغير ملامح وجهه لتعود كما أعهدها عابسة. يومئ إلىَ أن أنهض لأستعد معهم.

يصبرون زمنا طويلا ممتدا، ولا يتلقون العزاء قبل الثأر. يعدون العدة، ويجهزون الرجال ويخفون السلاح والنوايا حتى تهدأ الأمور، ثم لا يبوحون للحكومة عن القاتل، يعرفون أنه أحد الخصوم، أهل النجع ينتظرون حدوث تبادل الأدوار.

حط فى حجرى ميراث الغضب بعد أن قتل من رجال العائلة خمسة وثلاثون رجلا أولهم الشملول الكبير منذ عشرات السنين، وربما قبل ذلك أيضا. النسوة يرضعوننا الثأر مع اللبن، لننشأ رجالا رافعى الرؤوس، ولا سبيل سوى القتل غدرا أو عيانا بيانا وسط الناس الذين يبلعون ألسنتهم أمام العمدة والشرطة والنيابة.

الأيام طويلة تجر ليال أطول يمضى معها عمرنا. بعد السد العالى لم تعد الأرض تغرق فى الفيضان. انشغل الرجال فى زراعة المحاصيل. أنشأوا لنا الجامعة والمدارس الجديدة والمصانع. العلوم الجديدة غزت البيوت بتليفزيونات وثلاجات وتليفونات وحاسبات وأدوات أخرى. استنارت العقول، علماؤنا انتشروا فى جامعات أوروبا يحاضرون، وأولادنا فى المدارس والمعاهد يدرسون. تغيرت الدنيا حولنا وفينا. لم يبق أمامهم إلا الثار يلوكونه كل يوم. العصر الحديث وفر الوقت والمجهود والفكر، فتفرغوا للهم الثقيل يخططون له على الدوام.

حادثة القتل تجر التى بعدها ويتبادلون الانتظار فى كمائن نهارية وليلية لا تهدأ أبدا وإن بدا السطح ساكنا. يحركه كلام الليل، ويغذيه عبيط القرية الذى يدور يحكى للنسوان كلام الرجال الذى يتناثر فى الدوار.

المتعلمون يجتمعون فى النقطة والمدرسة ومركز الشباب، يتباحثون فى كل شئ وأولها ثأرنا التاريخى الذى صنع قتلى ومجروحين ومساجين، وأرامل وثكالى ويتامى ثم يريدون المزيد.

عواجيز البلد بخبرتهم وحكمتهم يجلسون فى شمس الشتاء يتلمسون الدفء، فتتمدد عروق الذكرى ويستعيدون أسماء رجال مضى عليهم تحت التراب أعواما. يؤكدون الخسارة بعد من راح، ويتوقعون الدور لمن هو آت. يكرسون الهم والدموع واتجاهات

أطراف الشوارب. يعددون أسماء من فى السجون، يحددون للموسم القادم من عليه الدور أن يقتل ومن سيصير قتيلا.

يُقتل بعض الرجال عندما تنمو أعواد القصب فتحجب فوهات البنادق، وفى موسم البلح يقصف عمر آخرين، ليذهب الأولاد إلى مدارسهم أول الخريف حاملين ذكرى وثأرا جديدا، يحرسهم رجال بالسلاح فى الغدو والرواح ولكن إلى حين.

ابن العم يأتى ومعه أبو الفرج. جميعنا فى الدوار جالسون منتظرين. نتفرق فى الدروب شرقا وغربا. اللثام يلتف ليخفى النوايا. السلاح تحت العباءة. الطلقات تملأ السيالة. النظرة جامدة فى العيون. الملامح متصلبة فوق الوجوه والقلوب. يأخذوننى وسطهم مجبرا بالإحراج لأكون رجلا مثلهم. أرسم على عينىَ مخايل النخوة والتصميم. عسير علىَ أن أتراجع بعدما خططوا وأحكموا وبيتوا ثم هبوا منطلقين. إنه ثأرى يساعدوننى عليه. إذا تخلفت لن يرحمون ويلحق بى عار ثم يتبرأون منى ويطردون.

تلوح السيارات على البعد قادمة تجرى فوق المدق القديم. تثير الغبار خلفها، وشمس المغيب الحمراء تلقى بأشعتها فترتسم صورة مشتعلة مغبرة لما سيكون. رجالنا كامنون فى مجموعتين بالتبادل على جانبى الجسر المرتفع تخفيهم المزروعات. دفعوا واحدا ليكون البصاص أعطى الإنذار، وآخر هو عمى كبيرنا طلقته الأولى إشارة البدء.
تدخل السيارة الهدف إلى مدى الضرب فأتأهب.

أصوب بندقيتى جيدا. أقبض بيدى على الدبشك بقوة وأشددها حتى تصبح جزءا من جسدى. أكتم الزفير. إصبعى فوق الزناد. عقلى غير صاف هذه المرة. يتداعى إلى فكرى قتلاى أمام مواقع السويس، ومجدى الذى كان.
أنظر إلى السماء مستغيثا لأستعين بالله، وأسأله كيف ستحاسبنى عن نفس أقتلها متعمدا؟ هل ستسامحنى؟ لا أظن، فهذه من الكبائر. أرجو الغفران. يجبرنى العرف والناس، وأمى حبهان وجدتى سليمة وأولاد العم أن أفعل. يتنازعنى الإيمان والعار، متراوحا بين الله والناس.

تخفف السيارتان السرعة عند المنحنى الضيق. طلقات العم أصابت إطار العربة الأولى. تندفع الرصاصات مخترقة الأجساد والقلوب. تتحول البنادق إلى السيارة الثانية، وطلقاتهم تنهمر تطيح بأرواح الباقين.
أضم إلىَ السلاح متمكنا. أوجه الماسورة إليهم. تنطلق رصاصاتى فوق رؤوسهم تماما، تحصد وساوسى وخوفى وترددى ومعصيتى. أقتل شيطانى عامدا بقسوة.

نختفى فى الزروع. تنتشر قوات الأمن. يبحثون فى كل مكان. نذوب نتلاشى. نمضى كلنا نحو الجبل، لنا فيه دروب وكهوف وحماية، ومؤن ومياه تكفينا شهورا. يلتم الرجال حولى

فى المغارة يربتون على كتفى فى فخر مهنئين أنى صرت مثلهم قاتلا. أبرم طرف شاربى أرفعه لأعلى، أفتح عينا غائمة فيها أثر الدموع عدوها فرحا بفوزنا. عمى يقول قتلناهم دفعة واحدة، بينهم طفلان لو بقيا لحملا السلاح علينا بعد سنين قليلة.

أتركهم وأبتعد وحدى لأغالب نفسى. أترك الدموع تتساقط، فلا يستريح قلبى ولا تبرد نارى، ولا آمن على أيامى القادمة بعد أن أصبح الجبل سكناى، وصرت من المطاريد. سأنسى أهلى وعمرى وشهاداتى وعلمى. ويتبدد حلمى أن أتزوج ويكون لى زوجة وبيتا وأولادا، رغم أنى أطلقت رصاصاتى بريئة فى الهواء. وقد جمعت الشرطة الرجال والنساء والأطفال يستجوبونهم ليل نهار. يحاولون تحديد الأسماء والأماكن للقبض علينا.

ولا سبيل للإفلات فالقتلى جاوزوا العشرين، وبندقيتى أطلقت، وكنا جميعا معا فى التخطيط والقرار، والتنفيذ والفرار، وأنا صاحب الثأر، ومن الصعب الإنكار ولن يصدقنى أحد على الإطلاق، وربما يقولون لقد جن من هول الانتصار.

يفيض النهر هادئا فى موعده ككل عام. تندفع مياهه تغسل المجرى من أحداث العام. ينصرف الرجال إلى أعمالهم، والأبناء والأحفاد يذهبون إلى الكليات والمدارس.

وعجائز النجع والنسوة يجتمعون فى ليالى الأحزان والأفراح وعلى المساطب وفى المنادر والدواوير كل أيام الصيف والشتاء. ألسنتهم تستدعى سيرة شملول الكبير ثم عشرات الرجال الذين لحقوا به، ويمصمصون الشفاه تحسرا على أيام كانت كلها دم وشوارب مبرومة إلى فوق يعتقدون ذلك مجدا رائعا. رافضين صلحا شريفا أوله تقديم أكفان مطوية، يرون فيها ضعفا وخزيا وعارا كئيبا. غير عابئين بأبنائهم الهائمين مطاريد على قمم الجبال وسفوحها سنين حتى يدركهم الموت لا محالة.

* * *

المهمة المستحيلة

من أعمال أبطال حرب ١٩٧٣

نجح نافون أحد عناصر الموساد فى الاتصال بالقائد مصطفى خليفة أثناء حرب الاستنزاف، واستطاع أن يجنده لحسابه بعد أن أغراه ثم ورطه فى شباكه، ولم يستغرق ذلك منه سوى شهور ثلاثة بعدها أصبح له السيطرة التامة عليه لينفذ كل ما يطلبه منه داخل وخارج صفوف الجيش. من البداية مصطفى خليفة اتصل بالمخابرات الحربية عن طريق زميل، وقدم تقريرا وافيا عما يتعرض له مع نافون.

خطة كاملة، وتدريب متواصل قام به مصطفى خليفة فى وحدته وبيته وبيت صديقه حتى أتقن دوره تماما فى الاستسلام الكامل الذى فرضه نافون حتى وثق به، وبذلك استلم مصطفى خليفة المهمة كاملة وسافر نافون وتركه ومعه جهاز لاسلكى صغير وآخر كبير له هوائى خاص مع تعليمات الاستخدام وبعض أدوات التخفى والتنكر والرسائل السرية.

الرسائل المدروسة ظهرت نتائجها الفورية، فإن أسماء القادة الجدد التى بعث بها مصطفى خليفة فى رسالته الأخيرة، قد أرسل الموساد يطلب التركيز على الاسمين الأولين منها وجمع المعلومات المتاحة عنهما بأقصى سرعة.
ابتسم مصطفى خليفة فقد حان وقت العمل الممتع، فأرسل إليهم أنه غير قادر بمفرده على القيام بالمهمة المتشعبة، ويلزم له الدعم البشرى للتنفيذ السريع.

فى اليوم التالى مباشرة وهو متوقف فى إشارة المرور بميدان التحرير أمام الجامعة الأمريكية وجد أحدهم يقتحم عليه سيارته يقفز إلى جانبه. قدم الرجل نفسه على الفور اختصارا لفترة المفاجأة والدهشة.

قال– أنا ميشيل آريل، تتبعتك من أمام منزلك، ولم ألحق بك إلا هنا.

- تعرف طبعا أنه لابد من الاحتياط والحذر.
- لقد أرسلوا أن أقابلك على الفور لننظم العمل معا.
- سأنفذ ما تريده تماما، اطمئن.
- سوف نحقق معا كل المطلوب.

الصدمة أدهشت مصطفى خليفة بالفعل، وظل صامتا يستمع ويستجمع قوته وفكره ويجاهد ليثبت ملامحه حتى لا يظهر انفعاله، فتماسك وقاد السيارة حتى توقف عند كازينو

قصر النيل وجلس يستمع إلى ميشيل، وبعد لقاءات ثلاث انضمت ليليان إليهما وهى راقصة محترفة تعمل ضمن فرقة بفندق على نيل القاهرة.

المهمة كانت ترتكز على عدة محاور داخل القوات المسلحة وخارجها، ونظم مصطفى خليفة العمل والمسؤولية، وبين أهمية السرية والكتمان والتخفى وعدم الاعتماد على الغير من المصريين أو الأجانب فى التنفيذ.

قال إنه يحتفظ لنفسه باتجاه الجيش لأنه قادر على التنفيذ وحده فى هذا الحقل الصعب، خاصة وأن احتياطات الأمن تحول بينهم وبين الاختراق، وبين لهم السبل الأخرى لتنفيذ المهمة، بل وحدد أسماء بعينها يتعامل معها القادة الهدف فى أماكن سكنهم والنوادى العسكرية والمدنية المشتركين بها، وحتى الكليات الجامعية التى التحق بها أولادهم، كما دون لهم كشفا بأرقام السيارات وأسماء السائقين والخدم وربما بعض عناوين صديقات الزوجات، وترك الباقى لهم.

تحددت خريطة العمل، والقائمين على التنفيذ، وأسلوب جمع المعلومات، وفى كل لقاء كانوا يطلبون ضم أحد العناصر المصرية أو الأجنبية، حتى بلغ عددهم أربعة عشر فردا منهم خمسة من المصريين والباقين وصلوا من الخارج أو كانوا من العاملين بالسفارات والشركات الأجنبية فى مصر.

الهدف كان جمع المعلومات عن مدير سلاح المهندسين العسكريين، والرجل الثانى للدفاع الجوى. وبالطبع فإن التخطيط للقتال سوف يشمل كلا الرجلين معا من حيث التدريب والتجهيز لمعرفة النوايا القتالية للقوات المصرية.

اتسعت دائرة المراقبة والأعمال لتشمل ميناء السويس والإسكندرية الحربى والتجارى، والجزء العسكرى بمطار القاهرة الجوى لحصر المعدات الواردة لصالح القوات المسلحة من الكتلة الشرقية وبعض دول أوروبا، وكان هناك فى كل موقع شخص جندوه لهذه المهمة.

توالت الرسائل الصادرة والتى يسيطر عليها مصطفى خليفة بمعرفته شخصيا تحوى سجلا ضخما من المعلومات. ولم يصدق الإسرائيليون أنفسهم وهم يستقبلونها من فرط أهميتها وواقعيتها، وأزاحوا فكرة إنشاء شبكة إضافية بالقاهرة أو الاستعانة بأشخاص آخرين.

أصبح مصطفى خليفة رجلهم الأول، ولم تمض الأمور هادئة أبدا فإنه كان أخطر بكثير من توقعهم ففى كل مرة يطلب المبالغ أضعافا ليغطى تكاليف العملية، ويزيد رصيده فى كل مرة حتى أنهم أرسلوا إليه تهديدا بتوقيف التعاون إذا أصر على طلب الزيادة.

أمعن مصطفى خليفة فى عناده وامتنع أن يرسل إليهم أى معلومات، وقبل أن يتملكه القلق، كانت هناك رسالة باللاسلكى تطلب منه التوجه للبنك لاستلام طلباته. وواثقا يبتسم مصطفى خليفة مع قائده فإنهم سيأخذون كل المعلومات الواردة إليهم كما هى تماما.

أسلوب مصطفى خليفة أن يرسل إليهم ما يتوقع أن يطلبونه منه قبل أن يفكروا فى ذلك ليفاجئهم ويحصر تفكيرهم فيما يريد. فور أن أرسلوا النقود بعث إليهم بشفرة الاتصال اللاسلكى لعناصر الصواريخ على شبكة خط القناة، فاختبروها فوجدوها صالحة وعاملة بالفعل ، واستقبلوا عليها رسائل المصريين المتبادلة بين القواعد وقياداتها، وفسرت دفاتر الشفرة إبهام رموز الإشارات، وصدقوه. لكن بالطبع كانت الشفرة والترددات هى الاحتياطية وقد نفدت مدة صلاحيتها وصدرت الأوامر باستمرار العمل بها على الشبكة الثانوية يعيدون الإرسال عليها بإشارات ومهام الأسابيع الماضية فى جدية ونظام بالغ الدقة، بينما الشبكة الرئيسية فى سكون تام، والشفرة الخاصة بها قابعة فى خزائن الوحدات.

اعتقد الإسرائيليون أنهم حازوا كنزا رائعا، فأرسلوا يشكرون، وظلوا يتابعون إشارات وتحركات وحدات الصواريخ المصرية التى لم تكن تتم أبدا إلا فوق خرائط القادة الإسرائيليين وحدهم.

شحنات الصواريخ والأجهزة الفنية والأسلحة تصل إلى مصر تباعا، وبعضها يخضع من البداية لنظام صارم من الدولة المنتجة، فلم يخرج سرها أبدا عبر الطريق ولا الموانئ ولا الوحدات. وهناك شحنات مرصودة من بدايتها وقوائم الشحن سلمت منها صورا إلى عملاء الموساد قبل المصريين، وهذه كانت تصلهم أيضا عن طريق رسائل مصطفى خليفة فى الوقت المناسب فيقارنون ويجدون أنه يعمل بجد وصدق وإخلاص فى خدمتهم.

تزداد أهمية عامل الوقت كلما مرت الشهور ويتغير القادة، وتتوالى المهام على مصطفى خليفة الذى أصبح يضج بالشكوى من كثرة طلباتهم فى الوقت الذى يصرخون فيه من أرقام فواتيره الكبيرة، يدفعونها صاغرين.

يترك مصطفى خليفة مجموعته تراقبه عندما يتجول مع الحسناوات فى ملاهى القاهرة، ومع أسرته فى الأماكن الفخمة بعربته المكيفة فى استعراض واضح للنعيم الذى صار يرفل فيه. وزيادة فى التمويه أرسل إليهم أنه ترقى فى نشرة يوليو إلى رتبة العميد، فأرسلوا يهنئونه ويطلبون معلومات أكثر سرية.

نشطت الاتصالات بين واشنطن وموسكو وتل أبيب والقاهرة، يتباحثون جميعا لتهدئة عوامل الحرب التى بدت علاماتها. بينما العواصم العربية تتشاور بوسائل ومؤتمرات ومبعوثين. وأصبحت المنطقة تموج بتيارات غاية فى القوة، وكلها مبهمة، والجميع يتساءلون متى تنتهى دوامة حرب الأعصاب؟ وارتفعت درجة الاستعداد على الجبهة المصرية والإسرائيلية ثم السورية والسؤال دائم الإلحاح عن مدى جدية هذه المظاهرات العسكرية.

عاجل للغاية وينفذ فورا: مطلوب تحركات رئيس الأركان اعتبارا من الغد أول أكتوبر. كانت هذه الرسالة العاجلة التى وصلت على جهاز اللاسلكى لمصطفى خليفة وعليها العديد من علامات الأهمية والفورية. فى هذا التوقيت الصعب يطلبون شيئا هاما وصعبا. لماذا؟.. دائما المعلومات مطلوبة لتخطيط الأعمال والمهام وتوقع تصرفات الخصم. إذا هناك أمر حيوى بشكل قوى مريب.

مصطفى خليفة – إنهم يعدون شيئا أفكر فيه الآن. لابد أن نحدد الوقت والمكان بدقة. إذا صدق ظنى فإنهم يخططون لعملية جريئة وربما تكون انتحارية لخطف أو قتل رئيس الأركان على أرض مصر.

القائد – أفكر بالفعل فى طلبهم الغريب العاجل، ربما يعدون لقصف المنطقة التى سيتواجد بها بالطيران أو الصواريخ بعيدة المدى كما حدث مع الفريق عبد المنعم رياض.

مصطفى خليفة – لقد حدث ذلك بالصدفة عندما كان يتفقد وحدات الجبهة جنوب الإسماعيلية، ولا أظن أنهم يخططون لذلك هذه المرة.

القائد – إذا فيم يفكرون الآن؟

مصطفى خليفة – لو كنت قائدا للجبهة الجنوبية لجيش إسرائيل فإنى أستطيع أن أفكر بداورية أدفعها خلف الخطوط بالهيلوكبتر إلى غرب السويس، وتحتل كمينا للإيقاع برئيس الأركان بعد أن يحصلوا على خط مروره و التوقيتات.

القائد – خطتك مجنونة بالفعل، فهناك أجهزة الرادار وعناصر الدفاع الجوى والحراسات الأرضية إلى خطوط ووحدات الدفاع العديدة، أيضا من المعقول التفكير هكذا.

مصطفى خليفة – " تيجى تصيده يصيدك". سوف نفعلها

القائد – بمعنى..؟

مصطفى خليفة – نرسل إليهم المطلوب كله !!

ضحك القائد بشدة وهو يقول يبدو أنك ستفعل ذلك، ونظر إليه بقوة ثم أردف باسما فى ثقة سننجزها محكمة جدا كما يريدون تماما. ثم كانت هناك سرية جاهزة من كتيبة الاستطلاع القريبة صدر إليها الأمر بالتحرك الفورى إلى منطقة وادى حجول وسوف تتلقى المهمة عند وصولها على الأرض. وعند العصر كان قائد هذه السرية يحتل مواقعه بعناية مدروسة لتحيط الموقع المختار، بينما كانت فصيلة منها قد احتلت موقعا جنوب المنطقة للتدخل كاحتياطى قريب إذا لزم الأمر.

أرسل مصطفى خليفة رسالته وكانت بالغة الأهمية، تقول كلماتها "هام جدا وعاجل للغاية. المرور المطلوب سيتم على مواقع الكتيبة ٥٣ صواريخ أرض/ أرض بمنطقة وادى حجول على طريق السويس فى السابعة مساء اليوم لتفقد الإنشاءات الجديدة واختبار درجة الاستعداد، ثم يعود للقاهرة للمبيت ويتوجه فى التاسعة صباحا إلى قيادة الجيش الثانى". انتهى.

فى هيئة العمليات كان مدير العمليات ومدير المخابرات الحربية وقائد القوات الخاصة ومساعديهم يقفون حول الخريطة المجسمة للمنطقة يحركون القطع الحربية كما يفعلون فى دور الشطرنج، بينما الأعصاب هادئة، والكل يفكر فى الخطوة التالية. لم يكن صعبا توقع العملية المقبلة لعناصر القوات الإسرائيلية فإن هدفها لابد أن يكون الحصول على رئيس الأركان، وكان ذلك رائعا.

عناصر المراقبة بالنظر والصوت على الحد الأمامى للدفاعات جنوب مواقع السويس وفوق مشارف جبل عتاقة رصدت طائرة هيلوكبتر صغيرة تطير على ارتفاع منخفض جدا قادمة من اتجاه الشرق عبر الخليج تكاد تلامس الأمواج، حتى أنهم ظنوا أن هناك زورقا يبحر فى الخليج، ثم رصدوها ترتفع لتعبر سلاسل ارتفاعات جبل عتاقة، وواصلت طيرانها الواطى حتى جنوب مواقع الكتيبة ٥٣ صواريخ.

كان توقع القادة المصريين صحيحا تماما، فعندما غابت الشمس فإن الطائرة هبطت فى الظلام جنوب نقطة الشرطة العسكرية عند بداية المدق الواصل من طريق السويس إلى

وحدة الصواريخ بمسافة أربعة كيلومترات، وكانت الرياح شمالية غربيـــة تحمـــل الأصـــوات بعيدا فى اتجاه الجنوب حيث فصيلة الاحتياطى القريب. وكانت أنوار العربات المتحركة علـــى طريق السويس تمضى شرقا وغربا فى اطمئنان كامل.

كانت العربة الخاصة برئيس الأركان فى نفس الوقت تمرق على الطريق متجهـــة شرقا يرفرف فوق مقدمتها بيرق القيادة وأمامها سيارات الاستطلاع والوقاية وخلفها بعـــض العربات الأخرى للقادة المحليين، ولكن لم يكن داخلها سوى سائقيها فقط.

المبنى الصغير على مفرق الطريق والمدق الذى تستخدمه الشرطة العسكرية مقرا لها، يحيطه عدة براميل مدهونة باللونين الأبيض والأحمر، صار خاليـــا، وزرعـــوا أمامـــه وجانبه شواخص من الخشب والكرتون بأماكن جنود الخدمة، وأضئ نـــور خافـــت داخلـــه، وفتحت السدادة المتحركة التى تستخدم للسيطرة على تحركات الطريق، وبدت الأمور طبيعية للمراقب من بعيد فى ظلام الليل.

كان لابد لقوة الإغارة الإسرائيلية أن تبتعد مسرعة عن منطقة هبوط الهيلـــوكبتر وتتجه بسرعة وهدوء نحو المبنى الهدف. ذلك فى الوقت الذى كانـــت فيـــه قـــوة الكمـــين المصرية تعدل أوضاعها بسرعة متتبعة العدو بأجهزة المراقبة الليلية فـــى مهـــارة وحـــذر شديدين فليس مسموحا بالخطأ فى مثل هذه المواقف.

تجمعت قوة الإغارة حول قائدهم فى تشكيل التقدم شمالا، يقتربون حتـــى مســـافة الأمان قبل الهدف، ثم توقفوا يحددون ويدققون المهام والاتجاهات. وكان توقفهم بالقرب من خط السماء قبل التبة العالية المشرفة على تقاطع الطريق حيث يمكن التحديد بالنظر المباشر، واقتربوا من قائدهم أكثر يستمعون للتعليمات الأخيرة.

أحكمت الدائرة تماما حول قوة الإغارة، فإن فهود الاســـتطلاع المصـــرية كانـــت تتحرك فوق رمال وادى حجول فى الظلام بلا أصوات كما لو كانوا فى أرض التدريب ينفذون طابورا هادئين صامتين حتى ضاقت المسافة بينهم وبين القوة المغيرة فاســـتطاعوا إحصـــاء عددهم واختار كل منهم هدفه .

الطلقة الأولى كانت لقائد الكمين المصرى أتبعتها نيران باقى القوة وأطلقت قذائف مضيئة حولت المنطقة إلى نهار كامل وضحت فيه الرؤية فدققوا التصويب. ولم يتمالك قائـــد

فصيلة الاحتياطى فأمر بتدمير الهيلوكبتر. رامى ال..آر..بى..جى أهدى للطائرة طلقة فريـــدة فاشتعلت على الفور.

لم تدم المعركة الصغيرة سوى بضع دقائق حسمتها المفاجأة والمبـــادأة وإحكـــام التخطيط وقوة النيران. ولم يكن مصطفى خليفة ليفوته هذا الحفل النادر الـــذى لا يتوقـــع أن يتكرر أبدا فكان إلى الجوار مع قائد وحدة الصواريخ يراقبان مـــن مركـــز قيادتـــه والفـــرح يغمرهما، وانطلقا معا يعاينان على ضوء مصابيح السيارات جثث القتلى الإسرائيليين مبعثـــرة فى منطقة الكمين وقد تناثرت أسلحتهم إلى جوارهم. المثير انهم كانوا جميعا يرتدون ملابس الشرطة العسكرية المصرية. واستكملت الصورة أبعادها كما توقع تماما، وانطلق إلى جهـــاز اللاسلكى الكبير يبلغ عن الأحداث، يسبق البلاغـــات العســـكرية والرســـمية عبـــر الشـــبكة الإسرائيلية.

تصادف فى هذه الليلة أنه مر واحد وثلاثين شهرا على بدايـــة تجنيـــد مصـــطفى خليفة، وهى فترة كافية تماما، وكان من المحتم أن يتزامن توقيت تنفيذ العملية مع القـــبض على أربعة عشر فردا فى القاهرة والإسكندرية والسويس فى وقت واحـــد وأولهـــم ميشـــيل وليليان. ويرسل مصطفى خليفة فى تقريره الأخير شكرا على الطريقة المصرية، فى رســـالة مفتوحة عبر الجهاز اللاسلكى والذى رفع الهوائى الخـــاص بـــه فـــوق مبنـــى المخـــابرات، والتقطوا إشارته ولم يعلقوا عليها أبدا. ثم أربعة أيام فقط مرت، واجتاحت القوات المصـــرية خط بارليف على طول مواجهة القناة.

* * *

الحلبسة

ألتقى مع صديقى مسعد. نجلس على المقهى ساعات المساء نتبادل الكلام ونحكى. نستمتع بذكريات قديمة وآمال نريدها وحاضر نعيشه.
يحكى مسعد عندما راح يقدم أوراق حفيده آملا قبوله بالمدرسة التى فى مواجهة منزله. يقولون سوف يوزعون الأطفال الجدد جغرافيا على مدارس المنطقة لكن..! ويتعجب لما طلبوا أن يؤيد طلبه عضو مجلس الشعب وحددوا مقدما حجم تبرعه الإجبارى ليدعم العملية التعليمية. ولاموه أنه يفكر فإن بضع مئات لا تستحق التردد فإنها ستدفع بطلبه إلى مقدمة المقبولين. وعندما سأل لمن سيدفع قالوا له هناك قدمها للمعلم حلبسة.

- من..؟

- **المعلم حلبسة.. "ماتعرفوش"..؟؟**
- **طبعا أعرف الحلبسة.. حمص الشام بالشطة والليمون.**
- **هاها..المعلم حلبسة ياعم..فوق... فوق لنفسك!!**

ورجعت للبيت بعد يوم صعب أفكر كيف أجمع مبلغ لتدعيم الطلب وفوجئت بالكهرباء مقطوعة، وفى الحمام كانت المياه كعادتها أيضا وقعدت أندب الحال.

- عارف "جركن" المياه بكم؟

– كل يوم أربع "جراكن" للشرب والطبخ والحاجات الضرورية، غير ثمن الشمع والجاز، رجعنا لهم. غلب وحياتك.. العيشة بقت مرار.

- ما علينا .. كلنا على نفس المنوال.

- **لا.. الحال الصعب. لا نسكت عليه لازم نعمل حاجة. سأروح للبلدية وأشوف آخرة التسيب. أنا عارف كلها أسبوع ويتكرر فى التليفونات نفس الشئ. ويكفهر وجه الرجل قائلا ..هو المعاش يكفى.. حرام عليكم.**

ويروح مسعد يجاهد ليحصل على موافقات عودة التيار والمياه لكن بعد أن دفع للمعلم حلبسة المتحكم فى مصائر الناس. يقابلنى فى اليوم التالى ووجهه إزداد عبوسا وشعره منكوش ومزاجه منحرف. وقبل أن أسأله إنفجر قائلا:

- عاحبك؟ ياليتنى مارحت لهم. الكهرباء رجعت حرقت كل الأجهزة وطرقعت ودخنت، رجعوها بالقوى ليفرح الناس. "بالذمة ده كلام"..!!

وفى اليوم التالى قال مهزوما:

- **ياليتنى مارحت. المياه رجعت سوداء من غير رحمة ولا ضمير ولا ذمة وريحتها جاز تقرف الكلب وطول الليل فاتح الحنفية إن الهباب يخلص..فقطعوها قبل الفجر. من يرض ياناس.**
- **لمن رحت فى شركة الكهرباء؟**
- **المعلم حلبسه..**

- **يا ســــــــلام...!**
- **وفى شركة المياه؟**
- **المعلم حلبسه..**
- **أكيد انت تخرف.**
- **لا.. أنت لاتعرف المعلم حلبسه. هو فى المدرسة وشــركة الكهربــاء والميــاه والجريــدة والتليفزيون وفى كل مكان صدقنى. أخطبوط له ذراع فى كل مصلحة. جننى وأكل دماغى.**
- **أنا فاهم لكن أنت حساس زيادة.**
- **لا.. أنت لاتدرى الكثير.**
- **عارف أنا أخدت الأولاد ورحنا المصيف، كان نفسى أغسل هموم السنة فى البحر وأرجع فرحان، لكن لما وصلنا لشاطئ البحر كان كل ناحية فيها لافتة.. يعنى لو ندخل كلنا نــدفع خمســين جنيه طيب!! ونأكل ونشرب، والعيال يلعبوا بكم؟ اليوم يقف بكم؟ وأنا معــاى كــم؟ ســألت الناس بفلوسى القليلة أين أذهب؟ قالوا روح بلاج الحلبسة مجانى للشعب. قلت لهم عارف، ورايح بخاطرى ومزاجى من أجل العيال.**

رحت أزور صديقى ووجدت أخاه وأمه وحماته وزوجته يحيطونه بينما أولاده يروحون ويجيئون فى العنبر يكتشفون. مسعد كان راقدا مربوطة ساقه والأخرى معلقة وضمادة على وجهه.

يقول الطبيب مرحبا باسما: طبعا كان لازم يحصل. أنت عارف بعد الستين أنك عظمــة كبيــرة وأصــابتك الهشاشة ياباشا!! ويروح خارجا تاركا علامة إستفهام كبيرة واقفة تملأ وجه مسعد المرهق.

- **ورجعت ياصاحبى بعدها، وكانت المفاجأة أصعب. المجارى ضاربة فــى الشــارع. وكملنــا ماشيين لما التاكسى رفض الدخول، والعربيات الملاكى تفوت وترش المياه علينــا ولا حــد يهتم بالحاصل. والحجارة عملوها معبر فى موقف المحنة ننط عليها. والناموس والحشرات طايرة جماعات تحط على الحيطان والناس والأكل. ومشينا كل واحد شال شــنطة أو كــيس وبهلونات على الأحجار.**
- **لقيت نفسى فى الوحل لغاية شعرى، كنت أغرق. صرخت ليلحقونى غير قادر على الوقوف، وغبت عن الوجود.**

حماة مسعد راحت تحكى الموقف وكيف إنزلق ووقع فى مياه الصرف وكيف أن الأشــياء تبعثــرت فجمعوها بصعوبة بعد أن تلوثت بالقذارة، ثم اكتشفوا أنه راح فى الغيبوبة فأنقذوه إلى المستشفى الذى حدد رقم خمسة آلآف يدفعونها قبل الدخول وإلا ظل على حاله أمام الباب. وتمصمص شفتيها قائلة ضاع ثمــن جهاز البنت.
يرد مسعد قائلا أصبحت الحياة صعبة. وطلب أن يتصلوا بالمعلم حلبسه فإنه قادر أن يخفض رسوم الدخول وأجرة العلاج، وقد يرضى بالتوصية بإكمال علاجه على نفقة جمعية حلبسة الخيرية.

- **عارف ياصاحبى أنا أحب الحلبسة. أروح عابدين ألاقيها هناك تجنن. تروح إمبابــة فــوق الكوبرى تأكل صوابعك وراءها، حتى فى قصر النيل هناك واحد..الناس عنده طوابير. ليست القاهرة وحدها. لا.. فى إسكندرية وأسوان، وحتى فى الواحات كلهــم عــارفين الحلبســة ويموتون فيها ومنها.**

وأردف أن تاريخ الحلبسة ممتد من سنين، والناس تعودوا، وأصبحوا لايعترضون لامبالين أو مهتمين، فالأمر سيان والموضوع صار قديما.

- **الأسعار نار..!! عارف أيام الملك كانت البيضة بخمسة مليمات، والجرنال بصاغ، وانقلب الحال وبقى فى البلد ألف ملك، وارفع رأسك ياعم. أيام راح فيها الملك، ولا يهمنى الآن إلا ملكين أعرفهما سيسألانى الحساب، وسيكونان رحيمين، ولن يستجوبانى عن العلاوة والدمغات ولاضريبة المبيعات، ولا الرسوم أو واسطة عضو المجلس أو كارت ابن الأكابر.**

- كل زمن له ناس. الجريدة بجنيه، والانتخابات بالقائمة أو بالاسم لا يهم مادام الناس ساكتين. من أيام أزمة شركات توظيف الأموال سبعة عشر سنة والناس صامتين مستسلمين، وأربع حكومات دارت لايدرون كيف يحلونها ولا هم يتركونها. بل قاعدين على قلوبنا حتى مماتنا نحن لا هم. ويتكلمون عن البطالة والمخدرات والعنوسة وشقق الشباب ومشروعات. لكن دائما كلام مقاولين يكسبون منه فى الأول ويسيبونه، كما أعمال الحفر وعمل الأرصفة اليومين قبل الانتخابات وقبل الزيارات إياها.

- يالطيف اللطف يارب. عارف ياصاحبى الوفد زمان كان جامد أكثر من السعديين، والإثنين مسموعين عند الملك والحكومة. الآن.. لا الوفد ولا غيره مسموع لا للحكومة ولا للأهالى، والأحزاب مالها لزوم أبدا. شكل ديموقراطى لكن بلاستيك. والكل يقول آمين مسالمين مستقرين.

- عارف يامسعد، حضرت حفلة زواج فى فندق خمس نجوم، كان هناك رقاصة وفرقة موسيقى ومطربين، وصور وناس وفرحة. جارى قال لى وكان سيقتلنى لما همس أن الحفل تكلف سبعين ألف جنيه. حسبتها فى عقلى ولم أصل إلى كم من الزمن كان لابد أن أخدم فى الحكومة حتى أحصل على مثل ربع المبلغ مكافأة نهاية الخدمة.

- خمس جرايد... كلها كلام الحكومة، وأربعة وعشرين جريدة تعارضها، والكل يقولون كلاما فارغا. الله يرحم أيام البلاغ والمصرى ومجلة الجيل. لم يكن على أيامهم الحلبسة.

نسير حتى الميدان. نرى الفراغات بين أعمدة الإضاءة ومداخل الشوارع رفعت فوقها لافتات عليها شعارات تؤيد وتبايع وتطالب. عند النواصى ومحطات المترو والأوتوبيس تحولت اللافتات إلى لوحات معلقة وجدارية تزدان بالصورة الموحدة تدعو للإختيار.

- سأقول نعم بالتأكيد، وغيرى سيقولها، لكن كثيرون لن يقولوا أى شئ. هل أنت منهم؟

- ...
- ماذا ستقول..؟ نعم ..أو..لا..؟
- ...
- لابد أنك لم تكون رأيا بعد.
- لا.. أنا كونته بالفعل من زمان.. من ربع قرن فات وأنا لى رأى واحد.
- الآن ماذا ستقول..؟
- آآآآآ..ى بصوت عال جدا، سأقولها فإن ساقى المكسورة ستؤلمنى من جديد،

***

القاهرة.. يوليو ٢٠٠٥

الأمريـــكى الطــيب

يقف أبى أمامى جادا مشدود القامة. أعرف أنه سوف يقول لقد وصلت إلى مايجب أن يكون، لقد أنهيت دراستك الثانوية بأعجوبة، ويجب أن تعتمد على نفسك منذ الآن. اخوتك كثيرون.. و... واحتضنتة بقوة مقاطعا إياه بسرعة متمنيا له طول العمر والصحة. قلت لقد حسمت الموقف ياأبى. أنا دائما أشتغل فى الإجازات وأقدم لك كل ما أكسبه. الآن أمنيتى الوحيدة الاتحاق بالجامعة.
قال .. افعل ماتريد. يجب أن تجد عملا كى تدفع مصروفات الدراسة وتكاليف معيشتك.

كان لابد أن أختار بين العمل والدراسة، أو أن ألتحق بالبحرية الأمريكية أربع سنوات لأحصل على شهادتى الجامعية، وفى خلال هذه الفترة فإنهم سوف يعطوننى مرتبا كبيرا يكفى لأن أتمتع ببعض الرفاهية وأرسل لأبى شيئا منه وربما أدخر الباقى.

يوافقنى أبى لأنه يعرف جيدا كيف أنى سأحصل على مكافآت مالية مع ميداليات وربما كؤوس فضية أو ذهبية بسبب تفوقى فى الملاكمة فهم يهتمون بالرياضة. تمر شهور ستة وينتهى تدريبى الأساسى وإدخرت مبلغا رائعا أرسلت لأبى مثله، وأستعد للتخرج بعد أن حصلت على شريطين على ذراعى أتباهى بها أمام الزملاء والفتيات.

قبل التخرج بيومين يأتى رقيب الفصيلة ويأمرنى بالاستعداد للسفر فور التخرج فإن هناك مهمة رسمية وأدرجت الوحدة فيها. أهز رأسى موافقا قائلا نعم سيدى. كان ذلك فى صيف عام ثلاثة وتسعين وقد أتممت الثامنة عشر عاما وبضعة شهور.

قالوا مهمتكم هامة جدا وسرية للغاية. ستذهبون لحماية قوات الأمم المتحدة. عند المطار أضافوا أن المهمة ستكون فى مقدشيو وعرفت أنها عاصمة الصومال شرق افريقيا ويجب بدء المهمة فور الوصول.

هبطت الطائرة فى مطار مجهول لا نعرفه وقبل أن نسأل كان هناك سرب من الطائرات الهيلوكبتر القاذفة فى الانتظار وتسلمنا المهمة. وكان التنفيذ لا يستغرق وقتا طويلا. تهبط الطائرات خارج العاصمة ونتجمع ثم نتجه إلى المدينة ويتم الدخول بسرعة لاعتقال أحد القادة والعودة إلى منطقة الإبرار فى حدود خمسة عشر دقيقة.

لم يكن هناك مجال للتفكير أبدا، وطرنا وكان الإبرار جنوب المدينة لتستقبلنا بنادق الأهالى رغم الليل وعدم وضوح الرؤية بنيران متوسطة الكثافة، ولكن حظى أن كان هناك

من يرصد موقعى ويطلق النار فى إتجاهى وصحت أستغيث بقائدى على جهاز اللاسكى أنهم يطلقون النيران على.
قال وماذا ستفعل؟ يجب أن تقتلهم قبل أن يقتلوك. هكذا قتلت وحدى أربعة رجال حتى أول ضوء، ثم تحركنا.

كانت الطائرات الهليوكوبتر تطلق نيران الصواريخ، والرشاشات الثقيلة لتحرس تشكيل الدبابات ونتقدم جميعا فى إتجاه المبانى، والأهالى يفرون أمامنا. بعدها انهمرت علينا طلقات البنادق من البيوت وكنا نحتمى بالدبابات، ثم بدأت أطلق النيران فى إتجاههم.
سقط أمامى أكثر من سبعة لا أعلم كم منهم قتل أو جرح. لكنى كنت حزينا لا أفهم ما يحدث حولى سوى أنى فقط أطيع قائدى.
جرح من زملائى ستة جنود وضابط واحد، بينما كان هناك ثلاثة قتلى واحد منهم رقيب الفصيلة الذى كان يلقى إلينا بأوامر الضابط.

بعد أن هدأت الأمور أيام كثيرة مرت. نعدها نريد العودة. الأهالى كانوا فى غاية الدعة والاتزان. بل رأيتهم فقراء بسطاء كرماء فى كل شىء حتى أنهم أخرجوا إلينا من بيوتهم الماء والطعام والفاكهة والسجائر رغم أنها كانت متوفرة لنا من قيادة القوات.

سألنى أحدهم لماذا أنتم هنا؟ ولم تكن لدى إجابة له فسكت.
سألنى ثانية لماذا تقتلوننا. لماذا تقتلون المسلمين هنا. أنت أسمر اللون مثلنا لماذا أطلقت النيران علينا؟ هل أنت من أصل افريقى؟ ملامحك توحى بذلك. انتبه حتى لا يختلط علينا الأمر فنقتلك أيضا وأضاف مازحا..لا تخف فإنى أستطيع أن أميزك بسبب ملابسك العسكرية.

بقينا هناك سبعة شهور كاملة بلا داع مرت كلها دون إجازات أو ترفية سوى علب الحلوى والعصير، وكان نومى صعبا متقطعا بسبب الأحلام المزعجة والكوابيس الدموية. بينما ملامح الناس الطيبين تتجسم أمامى ممددة حولها الدماء على أسفلت الطريق.

عدت إلى البلاد وكان فى انتظارى ثمانية شيكات رائعة كل منها يحمل الثروة والرفاهية والأمل لى ولأبى الذى يتطلع إلى يوم يستريح فيه من مصروفات أخوتى الثمانية علاوة على اختنا الوحيدة مارى، فلم ينسى أبدا أصله المكسيكى.
هكذا استطعت أن التحق بالجامعة فى الفترة من عام ٩٤ - ١٩٩٨
وأكملت دراستى فى فترة تولى الرئيس كلينتون التى كانت هادئة وكنت أحلم أن أتزوج فى هذه الفترة فتاتى السمراء التى أحببتها فى الجامعة. قبل أن أبدأ فى ترتيب الأيام وصلنى إستدعاء البحرية الأمريكية أن أقدم نفسى إليهم على الفور.
طرت مع وحدتى فى إتجاه أوروبا. الهدف كان حفظ الأمن فى يوغوسلافيا بينما كان الرئيس سلوبودان مليفتش رئيسا لها. فى هذه المهمة مكثنا هناك ستة شهور ولم أشترك فى قتال

أبدا ولكن كنا نراقب العمليات هناك ضد المسلمين فى البوسنة، ثم عـدت فـى نهايـة عـام ١٩٩٨ لأحصل على نجمة وأصبح ضابطا فى البحرية الأمريكية وإزداد مرتبى أيضا.
فى هذه الأثناء حدثت انفجارات فى سفارات ومبانى فى افريقيا وأوروبا وسمعت عن شخص أسمه أسامه بن لادن الذى يقود عمليات الارهاب هناك.

رن جرس التليفون لأجد صديقا لى يصرخ ... أفتح التليفزيون حالا!! ووجدت الهول فقد كان يذيع باستمرار لقطات لاصدام طائرة كبيرة ببرج التجارة العالمى بنيويورك وأخـرى للبرج الثانى، ولقطات للخسائر والدمار. كان ذلك فى عام ٢٠٠١ ونسب ذلك إلى أسامه بـن لادن وكانت هذه هى المرة الثانية التى أسمع فيها هذا الاسم.

يرن جرس التليفون ثانية لأجد قائدى يأمرنى بالانضمام على الفور إلى القوات.
نزلت طائراتنا فى كابول واتخذنا مواقعنا وكنت أصبحت قائد فصـيلة كاملـة ونخـرج فـى دوريات بالتوالى للبحث فى الجبال وكهوف بينما الطائرات القاذفة تقوم بواجبها فى القصـف الجوى بالصواريخ وتدك المناطق التى سندخلها بعد قليل لنجد آثار الانفجارات واضحة بينما جثث القتلى من الوطنيين متناثرة الأشلاء والدماء حولها فى مشاهد مأساوية، ورغم ذلك كنا عندما نتجول لا نجد سوى الأهالى البسطاء يحملون العصى وبعض البنادق البدائيـة والكـل يبحث عن أسامه حتى صارت نكتة بيننا عندما يختفى أحدنا قليلا.

لم أقتل إنسانا فى أفغانستان لا أنا ولا جنودى. كنا نتعامل مع الأهـالى برفـق فلـم يظهروا لنا العداء أو المقاطعة وكنا نقدم لهم المعونة التى ترسلها البحرية وكانـت أطعمـة وأغطية وبعض الأدوات الصغيرة علاوة على الأدوية والمهمات الطبية.
رغم الهدوء إلا أنى عدت بذكريات مؤلمة للأيام الصعبة فى العمليـات هنـاك، فقـد كانـت دوريات مقدشيو الدامية تعاودنى فى كوابيس فأرهقتنى كثيرا لأنى كنت أحلم دائما بأننى أقوم بقتل هؤلاء المسلمين البسطاء ولكن لم يحدث ذلك، وعدت فى أكتوبر٢٠٠٢ إلـى الولايـات المتحدة لأتزوج، لكن للأسف وجدت حبيبتى تزوجت رجلا آخر.

استدعونى مرة تالية فى يناير ٢٠٠٣، وقبل أن نغادر ترقيت إلى رتبة المـلازم أول وحصلت نجمة ثانية بمرتب أكبر لكنى كنت حزينا للغاية بعد أن فقدت املـى فـى الـزواج، ففضلت السفر لكنى فوجئت بأننا ذاهبون للحرب فى العراق وهبطت الطـائرات فـى دولـة الكويت وتقدمنا حتى دخلنا إلى منطقة الحدود.

كلنا كنا خائفين. أنا كنت أكثرهم تأثرا لأن تجربتى فى أفغانستان مريعة، أعانى مـن تأثيرها حتى هذه اللحظة وكنت أحاول التخلص من المهمة الجديدة دون جدوى، لكنى كنـت مهددا بالسجن فى هذه الحالة.

بقينا على حدود العراق شهور يناير فبراير ومارس ثم دخلنا لنصطدم بالحرس الجمهورى العراقى وتغلبنا على مقاومته ثم تقدمنا إلى البصرة وبغداد وتكريت فى مطاردات لاتنتهى تحت ستر الصواريخ التى تطلق من فوق المدمرات التى تحرس حاملة الطائرات علاوة على القصف الجوى المستمر.

كنت أقود سريتى كاملة طوال هذة الفترة ويمكننى أن أحصى أننا فى معركة واحدة قتلنا أكثر من مائة وخمسين واستسلم ٩٨ عراقيا آخرون. بدأت حالتنا تسوء بعد إسقاط تماثيل صدام حسين فقد إشتدت المقاومة وزادت خسائرنا وقلت ساعات نومنا وزاد تحفزنا والتوتر.

كنت أتألم جدا عندما يأمروننا بالاقتحام للقبض على رجال المقاومة. كنا ندخل البيوت ونطرد الناس منها للتفتيش. رعب الأطفال والسيدات كان مؤثرا جدا علينا لكن لم يمنعنا من تنفيذ المهام التى كلفنا بها، وأستطيع قول أن بعضنا تجاوز الحدود فى التعذيب والاستجوابات أو الانفراد بالنساء عندما تكون هناك فرصة.

كانت أصعب المواقف عندما انفجرت قنبلة ألقاها أحد العراقيين علينا أثناء الداورية فأصابتنى شظية فى ذراعى وعولجت منها هناك لأنها لم تكسر العظام، فقط اخترقت اللحم ومازال أثرها واضحا عند كتفى.

أحد العراقيين سألنى وأنا أقف أمام مدرعتى.
قال هل أنت مسلم ؟
قلت لا..أنا لست مسلما ولا مسيحيا.
قال الله يريدك يأخى. ثم ابتسم فى وجهى ولم أفهم إلا بعد فترة.
ورغم كل الجو الصعب الذى كنا نعيشه كان الأهالى يرحبون بنا بلا قتال.

بعد زيارة الرئيس بوش لنا فى موقع القتال ساءت الحال أكثر، وطال الوقت علينا وأصبح الجميع يقولون أنه كاذب دائما لكنى لم أنس أن مرتبى زاد بدرجة كبيرة حتى وصل إلى٧٥٠٠ دولار فى الشهر.

فى العراق دائما أحسست الخوف كل الأيام بعد أن وصل عدد الجرحى فى سريتى إلى ثلاثين فردا علاوة على ثمانية من القتلى أودعناهم الصناديق وغطيناهم بالاعلام الأمريكية وودعناهم عند الطائرة.

راح فكرى أثناء عزف النشيد إلى أنى ربما أعود مثلهم فى صندوق إلى مطار شيكاجو وبالدموع يستقبلنى أبى وأمى وإخوتى معهم. فى الوقت الذى أذكر أننا فى أفغانستان

ويوغسلافيا لم يجرح فرد واحد منا، لكن فى مقديشيو جرح منا خمسة وعشرون وقتل ثلاثة، كل ذلك يجعلنى أحس أنى مكتئب أو خائف دائما وربما أحتاج لطبيب نفسى يساعدنى على الخروج من الأزمة.

قائدى متعجبا صاح فى وجهى ماذا تقول؟ تعال معى.
أخذته إلى الممر الطويل فى قصر الرئاسة العراقى فى بغداد. كنت أسير أمامه والأفكار تراودنى وتهاجمنى. وصلنا حتى الباب المغلق. لم يصدق الكولونيل مايراه.
كانت الدولارات مرصوصة محزومة فى صناديق من الكرتون متراكمة فوق بعضها ترتفع حتى السقف فى صالة كبيرة.
صاح الكولونيل مرة أخرى ماهذا..؟! لا يصدق عقلى ماتراه عيناى لقد حصلنا على ثروة.
قلت له أهنىء نفسى هذا شىء جميل.
قال أنت ..هات المفتاح. أشكرك. عد إلى موقعك الآن.
لم أسمع منه شيئا بعد ذلك ولا أعرف مصير الكنز الذى وجدناه. تذكرت عندما قال لى بالتليفون إنك لا تستيطع رفض المهمة وإلا فسوف تدخل السجن، الآن بعد النصر يأمرنى بالانصراف بعدما قدته إلى كنز رائع.

عدت إلى الولايات المتحدة فى يناير الماضى. كان يمكننى الاستمرار بالمرتب الضخم الذى وصلت إليه لكنى فضلت ترك الخدمة والتحقت بأحدى الشركات بمرتب ٢٥٠٠ دولار شهريا بعيدا عن كل هذه الضغوط..

فى شهر ابريل اتصل قائدى تليفونيا ليستدعينى للخدمة، ووعدنى بالترقى لرتبة الكابتن وذلك يزيد مرتبى الشهرى إلى نحو ٩٠٠٠ دولار عندما يرسلونى ثانية إلى العراق. هذه المرة تمسكت بالرفض فهددنى بالمحاكمة العسكرية.
ذهبت إلى المكتب لأقابله فوجدت حوله أكثر من ثلمائة آخرين يمسكون بأوراقهم يقدمونها شرحا لحالاتهم وفيها تقارير عن أمراض أصيبوا بها أو انحرافات نفسية يعانون منها بأمل الموافقة على عدم الاستدعاء وكنت منهم، لكنى واضحا قلت أنى لن أذهب ثانية إلى الحرب ولن أعطى صوتى للرئيس عند الانتخابات فى شهر نوفمبر القادم.

● * *

الشمـــــس القديمـــــة

يوسد الرجل رأسى ويلملم بعض الثرى ليرفعها قليلا حتى لا تلتوى رقبتى. يكوم بعضه خلف ظهرى حتى لا ينقلب الجسد على الظهر عندما ينتفخ، مع أن ذلك لا يهمنى الآن فى شئ.
أسمع أحدهم يلقن بكلمات أعرفها فقد سمعتها كثيرا. خائفا لدرجـــة الرعـــب فتيبســـت أطرافـــى. أتوقـــع حضورهم المخيف، فإنى أعرف ماقدمت، ومن المؤكد أنهم سيدعوننى أرى مقعدى الأزلى لقاء ما اقترفت، فلم أرحم نفسى قبلا رغم أنى مؤمن بما يجرى لى الآن، بل متأكد من ذلك، وأصررت كثور أعمى عنيد.

يطرق الملاك جرسا صغيرا برفق. يدوى الرنين فى صمتنا اللانهائى. ينبهنا لندرك. ينادى أن لكم فرصة لإصلاح أعمالكم التى كانت على الأرض. أتيحت لكم رحمة .. عمرا إضافيا جديدا.
أسمع الكلمات كأنها همس فى حلم قديم راودنى يوما عندما كنت صغيرا. لا .. بل إنى أحلم فعلا أنى مـــت وقد حاسبونى ولم يشملنى الغفران، وعرفت مكانى آسفا.
لم يحدث من قبل أن مات رجل ثم ارتد للحياة ليسمع البشارة أن له امتدادا يصلح فيه أعمالـــه لتتحســـن نتائجه فينقلونه إلى الدرجة الأفضل. الحلم صعب مرهق، أو لعلها أمنية فى غفوة بالأمل فى ملحق للحياة. إذاً أنا على مدخل الجنون.

قبل أن أتمالك وأصدق نفسى، أو أتهاوى صارخا، يضع الملاك السلة أمامنا. فتمتـــد أيـــدينا بسرعة نقبض على أشياء نفتحها. وجدت جارى وقد صار فى كفه عمر عصفور أخذه متحسرا ومضـــى ينتحب.
الآخر كان له عمر صقر يمسكه بين يديه يقلب فيه متعجبا، يتساءل كم سيعيش الصقر؟ قهقه الرجل خلفى فقد كان نصيبه عمر سلحفاة.

فرحا تأملت ما صار بحوزتى، فرأيت عمر وليد جديد يعدونه كان من نصيبى، فابتعدت به قبل أن يروه أو يخطفه أحدهم. هكذا سأعيش عمرا كاملا جديدا أبنيه على علم ودراية. قلت لجارى لقد كنـــت إنسانا وأحب أن أكون. سأعود لأريهم أنى مازلت، فأحقق الأمنية.

نشرت فى جريدة الأهرام١٠/٦/٢٠٠٥

يا ترى .. هل من حقى أن أبادل ميت آخر عمره الجديد؟ ماذا ستفيدنى سنوات عصـــفور أو صقر؟ كيف أعيش عمر سلحفاة مئات الأعوام بطيئة كسولة فربما أملّ الحياة الهادئـــة الرتيبـــة تمضـــى متمهلة أمامى.

أقف بملابس الأطفال فى فناء المدرسة. المعلمة فى الفصل تتهجى لنا كلمات .. حنّان .. منّان .. غفور. فى نهاية اليوم أرى الزملاء مع ذويهم يتمتعون بطفولة طازجة. طفولتى الآن إمتداد لكهـــولتى القديمة.

يتجمع الصبيان حولى. يجذبوننى من شعرى وملابسى. يستخفون بى. أركل أحدهم فى ساقه فأجرحها. يبكى الولد صارخا فينهمرون علىّ دفعا بأيديهم عقابا، وحقائبهم تخبطنى، تاركين إيـــاى فـــوق الأرض متربا أشعثا، وقد تمزقت ملابسى، والدم يسيل من أنفى وشفتى، والغيظ يملأ صدرى تمامـــا فلـــم أفلح فى ايقافهم، فأتوعدهم.

جلست إلى من يظن أنه أبى أعلمه الحكمة والأناة والصبر حتى أنتهى مما أفعله، والأخرى التى تحسب أنها أمى فأعلمها الهدوء والحب، والتى هى أختى ثرثارة لا تصمت لتسمع، فأضع يدى على فمها لآخذ فرصتى أن أقول لها رأيا ربما فهمت معنى الصمت.
أحس أنهم يحبوننى، لكنى لا أشعر بحبى لهم، فهم غرباء عنى، ويجب أن أبقى فى حماهم حتى أكبر وأعتمد على ذاتى رغم القوة الهائلة التى أحسها داخلى.

أرى الكل ملهوفين لجمع النقود والأدوات، يحبون أن يمتازوا بالسلطة والثروة والجاه. لا يدرون أنها كلها كانت لى وراحت لهم.
أتذكر ما كان، فأصمم أن أتجاوزهم جميعا فأفوقهم، وأجمع من المال ما يجعلهم يلتفون حولى ويلبون طلباتى وأوامرى. لا يهمنى كيف أجمعه الآن. هذا طريق مشيته من قبل وأصبحت محترفا، فصار لى السلطة والجاه، لأسخر من لهفتهم وأختار من هم حولى.
فى سنوات أقل من المئة ظننت قبلا أنى فزت بحكمة الحياة، ولكنى وجدتها ضئيلة فى عمر الكون، وما حكمتى إلا كلمات موزونة أحفظها وأضعها على لسانى فينبهر البسطاء.

أشتاق للسمراء ذات العينين العسليتين. بعدما أرتوى تجئ البيضاء صاحبة الشعر الكستنائى، فتظل إلى جوارى أياما حتى تزيحها الطويلة بقوامها السمهرى وضحكتها التى تضئ ما حولها، تناغشنى بطريقتها الفريدة. تزاحمها السمينة التى لها الصدر الناهد والأرداف، ودمها الشربات فلا تدعنى أغيب عنها أبدا.
أتروح بينهن نلهو ونشرب ونمرح ونقضى أيامنا وليالينا فننسى الزمن والناس. سعيدا بعمرى الجديد الذى أحصل فيه ما راح منى قبلا.

تروح السكرة. أجد نفسى ثانية بين الملاءات والحوائط البيضاء. وأناس لا يعبأون إلا بالأرقام فوق الأجهزة. يحقنوننى بالإبر. يغذوننى بالأنابيب. أستنشق الهواء من قناع. يروحون حولى لا مبالين أو مشمئزين.
تضمر عضلاتى. يتجعد جلدى. ، يتراخى الجلد فوق ساعدى ووجهى ويتهدل فكى. لحيتى نابتة أحكها فى وهن. قرح الفراش تصيب ظهرى وإليتى. صوتى لا يخرج، أشير بإصابعى لأبدى احتياجي.
ينظرون فى ساعاتهم. أوقن أنه لم يعد لى بالدنيا سوى دقائق أو ساعات. إذا سأموت ثانية فى غرفة مكيفة. أتذكر ما كان .. نفس ما أنا فيه ثم أروح بعيدا.

يزيح الرجل جمجمتى بيديه. يدفع ساقىّ بقدمه بعيدا يفسح المكان لآت جديد. يوسده الثرى ويلملم بعضه ليرفع الدماغ قليلا فلا تلتوى رقبته. يكوم بعضه خلف ظهره. أسمع تلقينهم. هذه المرة أعرف الخوف والرعب الذى يتملكانه فقد توقع الآتين إليه.

أنظر نحوه، أعرفه. إنه أنا الرجل. هل سيأتى الملاك ليدق الجرس فيتيح لنا عمرا إضافيا؟ أبكى فقد انزلقت فرصتى من بين أيامى فى أحضان الحسان والمال الوفير.
ذات العينين العسليتين، وصاحبة الشعر الكستنائى، ورفيقتى بروحها اللطيفة وقوامها السمهرى، وغريمتها بصدرها الناهد وأردافها الثقيلة ودمها الشربات. أذكرهن، حانق على ذاتى. أجدنى كنت غافلا تناسيت الحكمة والخبرة الضئيلة فلم تسعفنى، بل لم تكن سوى كلمات أتشدق بها فصدقت نفسى.

تلفت إلى جارى، وجدته يبتسم قائلا: لقد عشت عمر العصفور طائرا أسبح الله فغفر لى. قال الآخر: كنت صقرا أحوم طائرا مسافرا، فوق بلاد الله الواسعة فأوحده وأمجده فسامحنى. حسدت صديقنا الذى كان له عمر السلحفاة، فإنه الآن يصلى كل الأيام والليالى يراها طهرا وتسابيح وتهليلا وذكرا.

* * *

أهوى بثقلى إلى عمق سحيق. أرتطم بالقاع الرخامى فى صدمة ضخمة. تتقطع الأنفاس والنبضات والمرئيات. أفيق على حركة أصابعى تتلمس ما حولى. أفتح عينىَ فلا أرى. أغيب ثم أتمالك، ولا شئ سوى البرد والتراب ولمسات الأصابع المذعورة تتحسس بروزات وانخفاضات تحتى. بأناملى أقرأ اسمى محفورا وأن هذا مقرى. بعد ساعات أو أيام أتعود الظلام والسكون فالوقت مفقود.

تنفصل منى وجوه كثيرة جامدة التقاطيع ثابتة النظرات كأنها لتماثيل.تتضح معالمها جيدا، فبصرى اليوم أصبح حديدا. تقفز إلى ذاكرتى الأسماء فور الرؤية على البعد أتذكرهم ويتجمعون.

أراهم متناثرين فى مجموعات عجيبة. أدقق فتتضح أشكالها رائعة واضحة. أقارب وزملاء وجيران كسبت منهم مالا بلا حق. فى الجوار أناس كذبت عليهم أو شهدت لهم زورا وناصرتهم مدلسا. على الجانب نساء عرفتهن ومعهن أزواجهن وأولادهن يرنون فى انتظار. وخلفهن أناس صاحبونى سنينا جالسين يضعون الخمر والحشيش أمامهم، ولا يتعاطون. هناك أكوام من نميمتى ووشاياتى كثيرة وحقوقا سرقتها صارت لى ولم تعد تهمنى. كلما مر وقت يزدحم المكان بالوجوه حولى، وكلهم لهم فى عنقى شئ.

أحتار وأضيق وأيأس يأسا لم يعرفه أحد قبلى. أهتز فإن أخطائى حاقت بى. أحس الخوف يتملكنى والرعب يركبنى، ولا أرتعش ولا تصطك أسنانى ويعظم الشعور داخلى متورما. أود البكاء فلا تخرج الدموع ولا النهنهات وينتابنى ضيق عميق وكرب عظيم فأتهاوى إلى داخلى مهزوما.

تلمع على الأرض نمنمات صغيرة تثيرنى. ألتقط واحدة بعد الأخرى. أجدها ذكريات قديمة عن قط رضيع كان وسط الطريق خفت عليه أخذته ووضعته إلى جوار أمه. وقرشا أعطيته لفقير أمام مدرستى. وهذه لعصفور أطلقته من قفص. وهذه ربتة حنان فوق كتف صبى. وهذه كلمة حق قلتها أمام رئيس متعسف. وكلمة طيبة أصلحت بها بين صديق وزوجته. وبضع صلوات وصيام أيام. كلها حبات لم تملأ كفى، بينما تتعاظم أمامى أخطائى التى صنعتها.

أعمالى المتلألئة فى قعر كفى تؤنسنى قليلا، فأنظر إلى بهائها أتمنى لو ملكت منها الكثير قبلا. يتردد لسانى فى فمى بهتاف تسبيح خجلانا من ذاتى فأرى خيطا من ضوء متوهج يلوح أمام عينىَ. ينفرج النور بصيصا رقيقا يشملنى بالاطمئنان فأكمل تسبيحاتى.

ينادون – ياقوى.
أصرخ – يارحمن.
يهتفون – يامنتقم.
أولول مستغيثا، أدرك أنها الورطة الكبرى.
يضج السكون بهتاف ياحنَان.
تتملكنى الرهبة والجلال. أنظر للوجوه فأرى ملامحها تمتلئ بالمشاعر مرعبة تكرهنى لما كان منى، فأتراجع.

أسبح – يارب سبحانك .. يارحمن يارحيم.
يهتفون – ياعزيز ياجبار.
أسبح – غفرانك إلهى .. ياغفار ياعزيز.
يهتفون – يامهيمن يامتين.
أقول – أجرنى ياسميع الدعوات ياعليم ياحسيب يامجيب.
يهتفون – أنصفنا ياقادر ياقهار.
أقول – رضاكياربى.. ياكريم.. ياحكم ياعدل.
يهتفون – يامنتقم ياقيوم.
أقول – عفوك مولاى.. ياتواب ياصبور.. ياشهيد.. يامحصى ومعيد.
يقولون – ياذا الجلال والإكرام.
أقول – رضاك ربى.
يقولون – يامالك الملك.
أقول – أنا بشر خطاء. ألوذ بك. ليس لى إله غيرك.
يسبحون – ياذا الطول والإنعام. يامعز يامذل.
أهتف – خذ بيد المذنب فأنت الرحيم الودود.
يهتفون – الكريم العفو الغفور لا إله إلا أنت سبحانك.

أحس بأصابعى تنفتح، فأنظر لأرى نمنماتى القليلة الفقيرة تتزايد وقد ربت وامتلأت ثم بدأت تفيض حولنا فتملأ الوجوه نورا وتشملنا رحمة. فى الجوار كانت هناك قطة صغيرة تموء، يطير فوقها عصفورى الأخضر فى أمان.
يتحلقون حولى كلهم ويقتربون. أسمع الهمسات وتنقشع الغيمة. تتحدد الملامح. أرى ضوءا ساطعا يبهر عينىَ. أحس ألم شكة إبرة المحلول فى وريدى ويد تمسح جبينى، وأخرى تربت على وجنتى، وابتسامة فرحة على الشفاه وفى كل العيون، وعينىَ أنا دامعة.

* * *

نشرت فى جريدة الأهرام ٢٠٠٥/٦/١٠

<u>ليلة قطع النفس</u>

رأيتنى بلا حركة، مسجى على سريرى والغطاء مسدل فوقى حتى ذقنى. من خلال الرموش مغمض العينين أرقب ما حولى، أراه باهتا بأصوات عالية، وصوتى لا يغادر شفتىّ . أحاول الهمس فلا يسمعنى مخلوق.

الرجال حولى واقفون وجالسون يتمتمون. البعض يتلو من مصحف، أو يردد بصوت خافت يخترقنى هزا. السيدات متشحات بالسواد بعيون قانية عليها آثار الدموع وأنوف حمراء يثرثرن هامسات عن أى شئ.

يصلنى صوت الساعة رتيبا متتابعا يعلن مرور الزمن رغم أنف الكل بما فيهم أنا الذى قاربت فهم ما يدور. الطبيب يهز رأسه ويتمتم بألفاظ ويمد يده ليكتب على أوراقه كلمات استلمها أحدهم وشيعه حتى الباب وعاد ينظر إلىّ.

إذا هذا موتى الذى أنتظر. أعيشه لحظة بعد أخرى بوعى حقيقى وإرادة مسلوبة، وحكمة عمر مضى قارب الوصول إلى التوقف.
مالى الذى جمعته من السهل إحصاؤه. تركتى كلها فى جيب بدلتى داخل الدولاب، معاش الشهر كامل. فوق الرف مظروف ادخرت فيه نقودا لزوم ما سيكون ومعها نعى قصير به أسماء أحياء أظن أن أمرى يهمهم، وبعض الذين ربما يفتخر أبنائى والأحفاد بالانتساب إليهم. أعرف ذلك وكلهم يتناسون.
جارى فى الشقة المقابلة سوف يفتحها للناس كما فعلت معه فى مناسبة سابقة، وآن الأوان ليرد الجميل ويوفر لنا بعض مصروفات هذا الموقف.

تطوف حولى وجوه أعرفها. الباقون جيران وأصدقاء، ثم لا يهمنى من يكونون. الجسد توقف الإحساس به من ساعات. عقلى يدور ليبحث ويؤول ما يطرأ. لا أحس ألما ولا غضبا ولا سرورا. لم يخطر ببالى أن أشرب أو آكل أو أشتهى. لا أريد أن ألقى أحدهم أو أقدم نصيحة أو وصية.

فجأة تخلو الحجرة ويدخل رجال أفهم مهمتهم من أدواتهم. الحق أنى جزع جدا. يقفلون الباب. يخلعون عنى ملابسى. يجهزوننى. وجوههم جامدة. أيدهم مدربة وكلماتهم محفوظة يكررون ما يفعلون مرات كل يوم. لا أحس الألفة معهم.

عند الباب أتوا بخشبة قديمة على أركانها عناكب وتراب لم يكلف أحدهم نفسه بالنظر. الكل يؤدى المطلوب تلقائيا بلا حماس ولا همة ولا شعور.يعرفون أنهم سيتقاضون ما يطلبون فليس هنا من له جرأتهم ولا خبرتهم بالأمر.

أدير ناظرىَ فيمن هم جانبى. أتعجب عندما أراهم موجودين. هذا جدى لأبى وجدتى. خلفهم عماتى وأعمامى وبعض أبنائهم. إلى جوارهم أقاربى لأمى أحسبهم أزيد منهم عددا. الغريب أنهم ماتوا قبلا من سنوات كثيرة أو قليلة. ينظرون جميعا كيف ألقى الأمر وحدى. يرنون بود ورحمة وعجب. أبصرهم متخوفا.

يقول جدى اثبت يارجل، مت وأنا أصغر منك كثيرا. اقرأ لنفسك "ياأيتها النفس المطمئنة". خجلان أقول لروحى هامسا.. أين أنا من ذلك وعمرى كله أعرف مرتفعاته ووهاده وجيوبه وأركانه وظلمته؟ كيف لمثلى أن يقر على الحافة المسنونة عالم بما كان، يكاد يقرأ ما سيكون، عاش العمر يدرى مايفعله بالعباد.

أنظر للمستسلمين فلا يعجبنى ركودهم. المسكينة فى ركن تبكى وحدتها التى ستدوم سنين شيخوختها القادمة تراها ستطول أكثر من اللازم. أراجع أيامها معى وأراها حنونا متفائلة صبورة باسمة. يحز فى نفسى أن أدعها ولا أستطيع دعوتها إلى رحلة لا أعرف مداها. يقول جارى الطيب.. لقد كان مزعجا طول الوقت، الحمد لله أنه فارقنا، لكن الواجب أن نأتى. أقول أنا لم أمت بعد، ولم تحن ساعتى، ولن أستكين راقدا.

قمت على مهل أزيح اللفافات عن الجسد. سترت عورتى. أهتف أن هذه المرة السادسة التى أموت فيها هذه السنة. أعرف أنى أحلم بكم جميعا، وأنتم كلكم كابوسى الذى يركبنى. أنتظر أن يوقظنى منقذ، أو ينادى مؤذن أن الفجر قد حان، أو تلح علىّ ساعتى الداخلية أن أقوم إلى الحمام. أريد أن يحدث شئ من ذلك قبل أن يتكاثروا ويزيحوننى إلى الخشبة المتربة ذات العناكب فى الرحلة الموعودة.

أصرخ لذاتى. أنادى ولا مجيب. لن أستسلم هذه المرة كما فعلت فى الأحلام الفائتة. أقول ما قاله جدى. أتلو بعضا من القليل الذى أحفظ. يشملنى الهدوء وتلفنى السكينة. تبتعد المرئيات.

ساعة الحائط مازالت ترسل نبضاتها تؤنسنى. أصابعى تتحرك لتدفع الغطاء بعيدا. يتناهى إلى سمعى زقزقات ميكروفون المسجد القريب فى خشحشة أحببتها فجأة. أتخلص بسرعة من همى اللعين. أنهض مسرعا وأفتح الماء على رأسى فينزل باردا يكاد يكوى جلد وجهى ورقبتى وأعصابى، بينما ألهث وأتشهد حامدا متعجبا من حلمى الرتيب الذى لا يلبث أن يعاودنى كلما أحسست بالذنب والندم.

شرت فى جريدة الأهرام١٠/٦/٢٠٠٥

نرجـــــــــس

تجلس الجميلة إلى جوارى. تتملى عيناى فيها وحواليها. يخطفنى جمال وجهها والجسد. يحمل النسيم عطرها أشمه فتدور رأسى. أسمع حروف كلماتها وذبذبات شفتيها منبهرا أذوب من رقتها وحلاوتها. تروح نفسى تشتهيها ولسانى يقول أين كنت من زمن فات؟ فى لحظة أتذكرهن مررن فى حياتى، واحدة لها بصمة، وأخرى تركت طيفها، وامرأة أنسى اسمها كلما حاولت.

أتيه خيلاء وغرورا لما أحس تأثيرى عليها. أنتفش لداخلى غير مصدق اتساع عينيها كلما استفضت فى الحديث. تتدافع أنفاسها وعيناها الجميلتان مثبتتان فوق عينىَّ تراقصهما بخفة ومكر ودلال منطلق. ضحكاتها اللذيذة ألصقها بوجدانى لأستعيد صورتها استعدادا لوقت تبتعد فيه، مدخرا جمالها فى خيالى لأحلام يقظتى ومنامى.

تقول يافارسى طال بى الوقت. بحثت فى الآفاق. رحت المهرجانات والحفلات فى المدن والبلاد. أدور بين الشباب حتى كان يوم سعدى وليلة فرحى عندما التقيت بعينيك. رأيتك وسط الرجال أنت الكبير. متميز قوى أنيق. مقنع للجميع وأنا أولهم. تعال لنحيا ما لم نعش من عمرنا قبل أن تفوت الأيام. أهب نفسى لك. لم أكن لغيرك أبدا. قلبى تعلق بفارس أحلامى منذ ليال صباى. تتنهد زافرة الماضى متطلعة للأمام ووجهى. أتلقى رسالتها فتبتسم ملامحى راضية فخورة.
يندفع الدم فى عروقى نشطا. نبضات قلبى الهادئة تتسارع انفعالا كلما صافحت أذنىَّ كلماتها. ولما لامستنى يدها كاد القلب يتوقف سعادة لأتشبث بأناملها فى كفى لحظات أستزيدها.

شيطانى الصغير يوسوس فى شقاوة أن آخذها للشرفة بعيدا عن صخب الحفل والموجودين لننفرد نتناجى الكلام والنظرة والموسيقى والليل والهواية. مرحا يتقافز الخبيث بمهارة بيننا ويثبت خطاى فى وجدانها كلما مرت لحظة جديدة. أرى أفكاره سهلة قريبة مؤثرة فتتناغم ضحكاتنا ودودا مستبشرة. شيطانها يتآلف معنا وننطلق خارجين تاركين الناس يلهون فيما هم فيه وقد تقاربنا.

توقفنى إشارة الرقيب. يشد انتباهى نفير ينطلق متواصلا. سائق يصرخ ليشد الانتباه أن يفتح الطريق. أثور داخلى فهذا السخيف يدفعنى للاشتباك تاركا النعيم الجالس إلى جوارى. يتغير حالى وأتوقف عن التوهان.

دبوس طويل حاد يشكنى فى قلبى. أفيق قليلا. يحدثنى ضميرى بكلام الشيخ والمعلم وتحذيرات أمى. يشير إلى المسار والحدود. يضئ أنوارا حمراء ناحية الأمام واليمين. أفهم التحذير ألا أتورط مع الناعمة التى تنام أصابعها فى كفى طرية دافئة فيتراخى المسار والحدود والأنوار. يتوقف النفير ونمضى الطريق فى هدوء وسلاسة.

يتوهج إدراكى أن ما أنا فيه مغامرة جديدة ليست لذيذة على الإطلاق. وأن شهيد سيلمحنا ويسجل ما أنا عليه. أفهم أنه يجب أن أتوارى حتى لا يرانا من يوقعنى فى مشكلات معروفة ثم أتورط فى كذبات لزجة مكشوفة فأضطر أن أقسم بهتانا على سلامة موقفى فأضيف الكذب بعدما تورطت فى إثم وخيانة وكسرت حدودا.

صوت عقيدتى يرتفع معددا ويرفع اللهب فى وجهى لافحا. يغمرنى العرق. أرجو نسمة باردة تخفف العناد داخلى والرغبة. أصرخ لنفسى أنى أعرف كل ذلك . أقول لن أسقط وسأتراجع فى الوقت المناسب عندما أجابه الغلط فى علاقتى المنطلقة النادرة. سأكون حذرا للغاية فلا تفوتنى فرحة عمرى الباسمة. محنك خبير أعرف كيف أقود المواقف وأنا فيها فلا تتشابك ولا أغرق ولا يلومنى إنسان.

أنا ألومك . لن أتوقف. دبوسى الطويل سأنالك به فى عقلك وقلبك ووجدانك وأحلامك وصحوك، ثم أطول أيامك القادمة ولن تكون هانئة طرية فأجعلها نادمة عندما تكون وحيدا، هكذا أنغص حياتك بإرادتك. أشيح بوجهى عن الوعيد.

ينبهنى عقلى أن الجميلة اختارتنى بينما كان يمكنها الوصول للأفضل. توقفت عندى لما توسمت غبائى وانقيادى ولهفتى البادية على ملامحى الشفافة ويدى المرتجفة.

نفسى تدرك أن ذلك حقيقى ولا ينقص من قدراتى ولا وسامتى، وأن المبارة بين متكافئين من نوع واحد يسعيان إلى متعة الذات اليوم والليلة تدور بيننا سجالا متفاهمين.

تقول فى همس.. ويلى إذا لم تكن تريدنى.! ستكون نهاية حياتى قد دنت، أو أعيش وحيدة حزينة راهبة إن لم تكن لى. أمنيك بليال هائلة هانئة خارج الحدود والزمن. خطفا من عمر قصير ونصيب قليل بعد أن انفتح أمامك كنز فتقدم غير هياب.

ضميرى يفاضل حساباتى رابحا وخاسرا. لم أفقد نقودا ولا أملاكا ولا أصدقاء أو أهلا. لم يضع منى الطموح أو الأمل أو الفرص. كاسب أنا رقة ونعومة وجمالا. رابح أنا هناء الليالى والأيام والانطلاق. فائز أنا بما لم يحط به غيرى. ملك غير متوج فى ليال حلوة دافئة.

يقول.. لا تخسر احترامك لذاتك. تصاغرت أمامى أيها الجحش الكبير. ألقمه كلمات عريضة براقة وألفاظا قوية وحججا بارعة أن كل شئ على ما يرام، وخيوط اللعبة فى يدى وأنى فى الأمان.

روحى ونفسى وعقلى وضميرى وقلبى مع الإحساس والإدراك يتناوشون فى حدة، ويرتفع النقاش والكل يلوم أو يعاتب أنى فرطت وورطته معى. قلبى يتمزق ألما لما نحن فيه، بينما إحساسى يدفعنى أن أتبلد فى المواجهة صابرا فأفوز.

يا عمرى تهون قصص اللقاء والحب والأحلام عندما يعلمون فرحتى بلقاك. لا يهمنا ما يقولون. يتحدثون دائما عما لا يدركون، ولن يفهموا حبى يا كنزى الميمون أنك فتحت آمال السنين.

يترنح ضميرى مع روحى على وجيب قلبى. إحساسى يتوهج صارخا أن أدركوا الكل قبل أن يتوه فى نسمات عطرها ورنين كلماتها وجنون شطحاتها هذه الخمرية اللذيذة. وضعها شيطاننا المجنون فى دربنا الضيق.
تقول يا غبى الله المختار أنا هنا ولن أدعك تروح منى.

الليلة موعدى. أخدع الناس حولى فلا يعرفون. الجميلة تنتظرنى. لم يبق من نخدعه ســوى حارس البيت. لا يفوتنى التنكر. حملت الطعام فى الأكياس واللفائف. أنا موظف توصيل الطلبات. مــررت أمام الرجل أحمل بضاعتى. أتلفت إلى صناديق البريد وأهمهم سائلا كما لو أنى أبحث. يقــول .. الــدور الثانى أول شقة لليسار فأبتسم.

تدفعنى قلقة متوترة بعد أن دار سريعا عقرب الساعة كى أنصرف قبلما أتــأخر. إمعانــا فــى التخفى تضع فوق ذراعى الأكياس. أمضى سعيدا بما نلت من نصيب قصير. أخرج منتشيا أدنــدن لحنــا أحبه.

أفسح الطريق لقادم أمامى يصعد مطمئنا. عرفته على الفور فهو الذى صرنا خادعيه. فرحــا أحمد الله أن أنقذنى من التأخير لثوان. لو حدث لكانت الطامة الفاتكة. أتوارى بسرعة محتارا غير مصدق بالنجاة. أتلصص بنظرة. أراه يطرق الباب فينفرج قليلا فتطل مستطلعة فى وجل. يدلف بهــدوء عــادى. تنزلق قدمى على الدرج. أهوى مكسورا وتسيب الأشياء من يدى رغما عنى منتثرة فــوقى. أحــاول أن يخرج صوتى طالبا النجدة ولا يطاوعنى، فأبكى حالى. تنفتح حولى أبواب بينما ينغلق بابها.

* * *

القاهرة.. أغسطس ٢٠٠٥

رصيـــــــد

تخرج كلماتى غاضبة حانقة. أتتبعها بناظرىَ فأجدها تـــروح بعيـــدا. أحـــث ســـيرى مجهدا. خطواتى تسابقها فألحقها قبل أن تتلاشى. أبذل مجهودا حتى لا تتوه فى فضاء عـــالم فسيح. عند حائط كونى يسد طريقها تتوقف ذبذباتى وتتجمع فى قمع لامرئى. تتســـرب إلـــى فتحة مهيأة فى جانب. بصعوبة أمرق معها لأجد نفسى تزاحمها لغات فى عبـــارات وكلمـــات وحروف.

كعبيط فاتحا فمى وعينىَ أرصد مشدوها. أصوات مخلوقات منذ قديم متجمعة تتـــراكم تكاد تغرقنى. عما أبحث؟ كلماتى أنا أولا..!! أين هى ..؟ ماذا يهم فيها؟ فلتكن فى أى مكان. أعرفها كلها حقا وباطلا. أين حديث جدى وأبى وأمى بعد أن ماتوا من سنين. أيـــن أحكـــام ملوك وأمراء وقضاة وحكمة إنسان.

أريد صوت خوفو، وأن يحكى جرير وجحا وابن بطوطـــة ومـــاركو بولـــو وبتهـــوفن ومايكل انجلو . كيف يتأتى أن أعرف وأميز أو أصدق، ومن يدلنى أو يتـــرجم أقـــوال بـــوذا وغاندى .لماذا أصوات تجمعت وما مصيرها وأصحابها صاروا ترابا. كلمات أحياء مازالـــت تتوالى طازجة يتلقاها رقيب عتيد.

يده كبيرة فوق كتفى تربت بخفة. أنظر لأجد مخلوقا صوتيا يشير فى رقة أن أتبعـــه. أمضى خلفه مسيرا بفضولى إلى قناة تمتد بروافد يدخلها بعض مما هنا، أو يدفعه تيار إلـــى آخر أصغر أو أكبر منها يجذب نوعا من كلام. أتطلع إلى واحد. رائحة نـــتن نفايـــة تنبعـــث فأتباعد لأجد نفسى فى بستان عجيب يفصله حاجز لامرئى، فتراوحت بين جانبين لأرى كلام أغنياء وأغبياء وراقصات وطبالين وسفلة طغاة وحكام مزورين وشواذ منحرفين فكدت أتقيأ. أروح إلى ابن كثير وشكسبير ونيوتن فلم أميز لا هنا ولا هناك، فقط سعادة تشملنى عنـــدما أسمع أصواتهم .

يبتسم دليلى ويشير أن أمضى خلفه نحو مكتبة ترتفع بأدراج عجيبة كل مافيها مرتب، قسم أخيارا وأشرارا، فلم أفهم. أحدها ملئ بأصوات نداءات باعة. وجلاجل مع وقع حـــوافر لعربات حنطور وكارو، وشتائم سائقين ومارة. وآخر به أصوات دق على صاج وحديد فـــى ورش واسطبلات بتنافر عجيب. ثالث يفيض بانفجارات مدافع وقنابـــل مـــع صـــراخ قتلـــى وجرحى وثكالى وأيتام. تدور حولهم طائرات وسيارات وآلات تبث ضجيجا. تلسعنى فرقعـــة أسواط على أبدان وزئير أسود فى سجون قديمة.

طبول صغيرة وكبيرة عميقة وضحلة مرنمة مرتبة فى لغة منغومة أو متفاهمة عبـر تباب ووديان تنذر بأعداء ووحوش. تنبئ بقدوم راقصة أو نشيد حرب. تـدوى لتصـم آذان وتخفت ليتراقص مخلوقات أولها قردة وإنسان. تنطلق قهقهات وقورة ورقيعة مسحوبة مـع كلمات ممطوطة أو مضغومة من سكارى ومرضى. ضحكات فى مدرجات وحفلات ومسـارح ودور عبادة ودورات مياه. بعيدا فى رافد منتظم تتجمع إذاعات عبر سنين من أيام ماركونى حتى فضائيات هلس منظم فى إرسال خليع متهتك جاد أحيانا.

تشدنى صرخات لحظات خلق. آلآم مخاض وشهقات خافتة تلوم لإنسان يولد. زغاريد تنطلق فى ولادة وطهور وزفاف ونجاح. عويل ولطم ونحيب يزف موتى بكل لغـات تنطـق تبهرنى وتمزقنى. يصاحبها أنين مكسورين ومصدومين وآهات مجهدين ومكلومين وشهقات غرقى ومظلومين وتأوهات عجز وقهر.

ألمح وميضا بلون سندسى يطلق علامات محذرة فأخاف. وجيب قلبى يختلف. أحـس حنينا للقرب. يشدنى صفاء. أسمع أبواب رقيقة تفتح وتنغلق هادئة. ينشرح قلبـى وأفهـم. رسل وأنبياء ومؤمنون مجاهدون وحكماء عاقلون وصناع تاريخ وأصحاب كلمة وكثير مـن مساكين وفقراء، كلهم فى عليين.

تنفتح نافذة لتنسرب نحوى تكبيرات وتسابيح نورانية تهزنى رجـاً. ينـتفض قلبـى وجسدى وروحى تأثرا ورهبة وخشوعا. يسعد فؤادى وأدرك، فيزداد قلبى وجيبـا. يصـافح أذنىَ دعاء. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، يقوله يونس مكروبا. أسمعه يـرن فى هدوء وسكون عذبا رقيقا مستغيثا يطمئننى وأقف لألبى فأردده مطمئنا.

* * *

سـحر العـيون

وحيدة فى المساء أجلس أمام التلفزيون صامتة وهو صامت، وقفص العصافير الصغير نائم به زوجان وأفراخهما الصغيرة. تتباطأ الساعة ويعز النوم. أقوم لأدور فى البيت أبحث عما يلهينى. بعيون هدها السهر أتعجل الصباح أن يأتى ربما يحضر أحدهم فيملأ البيت ضجيجا مع أولاده. أحبهم جميعا. أخاف أن ينسوننى فلا يزرنى أحد.

ينقص العدد تسعة ليصبح ثمانية كاملة حزينة بعد فقد الذى راح. يتوالى النقصان بمرور الأيام لتكون العيون باكية والحزن مستمرا أو متقطعا يتجدد كلما غاب أحدهم. لم يبق سواى أعد كل من فات وأتذكر أيامه ولياليه ومواقفه التى كانت. أغمض عينى وأمصمص شفتى ويلهج لسانى بالحمد والتسابيح أختمها بالدعاء أن يتقبل ويغفر لنا.

أراقب النقصان وزيادة الأعمار وزيارة عزرائيل متابعة إياه فى الأحاديث وصفحات الوفيات. أسمع عمن جهز نعيه كتابة وعدله مرات حتى لا ينسى أحدهم وتكون مشكلة سقط سهوا، ربما ليتفاخر مع الأموات بطول نعيه فى عمود الجريدة. وحتى لا يتحجج الأولاد فإن التكاليف كلها موضوعة فى درج إلى جواره فيها أجر المقرئ أيضا. غيرهم من زمن أخذ القماش فى رحلة العمرة ونثر عليه من زمزم ماء كثيرا متبركا حتى يلفون جسده فى طهارة تزكيه أمام الملائكة.

يتزايد العدد الذى كان تسعة متناقصا. كل منهم قبل أن يرحل ترك معنا أربع أو خمس أولاد غير البنات كلهم تناسلوا. أحتار فى أسماء أطفالهم الذين أصبحوا رجالا فى غفلة من العد الذى لا يفارقنى. يأتوننى بشوارب ولحى وزوجات اختاروهن من بلاد بعيدة. ينادون يا خالة يا عمة وأنا أجيب بالابتسامات وقد أستعمل يدى فى التعرف على ملامح الكبار فأنا لا أنسى رغم عينى الكليلتين.

حفيد رقيق أنس حضنى ثم نام مطمئنا أبعده بسرعة فقد بلل ملابسى، وآخر يحب التسلق فراح يعدو فوق فراشى وأخرى يدها تطول كل شئ وتعبث بأدراجى. أتنهد متمنية أن ينتهى النهار لأتخلص من الزحام.

أفتح عينى بصعوبة. أجدهم حولى. الحمد الله على سلامتك لقد إنزعجنا. أنت البركة الوحيدة الباقية لنا من الأحباب . أفهم أنى أصبحت الجدة المريضة. لا أحاول الكلام أو الحركة. عيناى تفصحان وتفضح أنى أسمع همسهم الدافئ وألمح فى المآقى المعانى وعبرات محبوسة. أوقن أن التسعة القديمة توشك أن تنتهى. أرنو إليهم لا أعرف كم صاروا لكنى مطمئنة.

* * *

الــــوداع

تجمعنا مع الأهل فى حجرتها. نقف صامتين حولها. أراها معهم راقدة هادئــة فى سلام كأن الأيام لم تكن. تبدو كأنما رفع عنها الملامح الإنسانية لتصبح نورانيــة شــفافة بمسوح الملائكة.

تدفعنى أمى بعيدا بينما أخى الجديد تضمه إلى صدرها ترضعه. تنظر إلــىّ ألا أقترب فأبكى منزوية. تشترى لعبا وملابس وحلوى. تدعه يختار أولا فلا يعجبنــى نصــيبى. تكافئه على نجاحه الهزيل. تشد ضفيرتى عندما أفقد درجة.

بصدر عار يقف أخى فى الشرفة يطل على الناس والجيران. تحرمنى أن أفتح الباب عندما يدق الجرس. تمنعنى من الجلوس مع الضيوف. تقرص فخذى وذراعى العارية. تتغزل بإعجاب فى عضلات أخى. تتركه مع التليفون وحده ساعات تتغاضى. تســألنى دائمــا عمن يحادثنى وتخطف السماعة متشككة تتأكد من إجاباتى. تتفانى مع أخى. تتركــه يــدخن. تعرض الكثيرات ربما رضى بإحداهن. تختار له العروس.

تغرق أمى فى مشكلاتها مع أبى وعائلته، ثم مع إخوتها بميراث أبيها. أحــس الضآلة والضياع. أتشبث بأول طارق على بابنا لينقذنى. دائما تعترض أمى. ألــوذ بحجرتــى سجنى. أبث همومى للورق والشجر والأغانى أحلم بالخلاص.

حملتنى من الصغر كل هموم بيتنا. على أن أفعل كل شئ. لــم أكــن أختــار. فرضت الأعمال تدريجيا لتتخلص منها وتتفرغ لمشاحناتها مع أبى والعناية بأخى. يعجز أبى فيجلس فى الشرفة أو جوار النافذة يتصفح الجرائد ويسمع الأخبار، وربما استطاع أن يدخن. يهرب إلى أصدقائه مرة أو اثنتين فى الشهر وثالثة يوم صرف المعاش.

تنادى تطلب الطعام ولا يعجبها دائما. أحيانا تقلب الأطباق أمامى ويسيل الطعام فوق كل شئ. تحيطنى بصفات الإهمال والبلادة والغباء. تمتد يدها بصفعة أو ضربة وربمــا قرصة يزرق مكانها أسبوعا حتى يروح الأثر فتأتى لتفعلها ثانية متلذذة.

تختار أمى ألوانا رائعة لشعرها تخفى الأبيض، وملابس تبــدو فيهــا أصــغر سنوات، وتروح لصديقة لها تدوران على المحلات والصديقات كل يوم. عندما تعود تمســح بيدها على سطح المنضدة لتجد أو لا تجد بعض الغبار فتصرخ بإهمالى.

دائما أشكو لأبى أو أخى فلا ينصفاننى. يقولان كلاما يطيب خاطرى لحظــات. أبى أصبح مثلى يتلقى صامتا متحملا يمصمص شفتيه فى ألــم وانكســار ويقــول يجــب أن تتحملى زوجا عجوزا مريضا أيامه أصبحت قريبة. يتطلع إلى نهاية هادئة فأبكى ضعفنا.

يجن جنونها عندما يعصاها أخى المدلل. هو الوحيد الذى يمكنه ذلك. يتـــزوج عامدا فتاة أحبها وافق الكل عليها عداها. تحاول الاستئثار به. يفرح أبى أن هناك من يقاوم، ويشمت عندما تهملها زوجة أخى. بعيدا مع زوجته يسافر أخى ليتجنب تـــدخلات أمـــى فـــى حياته. تبكى جحوده وتطلب أن نقول آمين. تنكد علينا وقتنا وتتركنا إلى صديقاتها.

يهربنى أبى إلى طارق جديد. أتزوج بعيدا جدا كأخى فأحرمهـــا مـــن كـــل مـــا يرعبنى منها. أشفق على أبى فهو وحده فى مواجهتها. أسال عنها مرات متفرقـــة. أحـــادث أبى كلما استطعت فأطمئن على حاله.

تمر سنوات. يموت أبى الصابر فأفقد قلبا حنونـــا اســـتطاع مـــرة وحيـــدة أن يحمينى فتزوجت هروبا لأعيش كما قسم لى. تأتينى الأخبار أن الأيام نالت منهـــا فأقعـــدتها. تتناول الأدوية فى هدوء. تطلب كثيرا أن أزورها فأخاف. أعدها بزيارة قريبة يوما.

فاجأتنى أمى وماتت قبل أن تطيب خاطرى أو تعتذر . أردت أن أسامحها قبـــل أن تفارق ولكنها تعجلت. لم تطلب منى يوما أن أستريح أو أبتسم، حتـــى عنـــدما مرضـــت تركتنى وحدى ولم يكن جوارى إلا ذكرى أبى العجوز.

أخى يمسح الدمع عندما يتحدث عن أمنا. يحكى حنانها ورقتها وتفانيها. يذكر طفولة رائقة لذيذة فى أحضان أم لن تتكرر أبدا. يقول كانـــت أكثـــر روعـــة مـــن الأمهـــات الأخريات. يتوقف ليذكر مقاومتها لزواجه. يحكى أنها عارضت مرات لأنها تعمقـــت بفكرهـــا لترى مالا يراه غيرها، فحكمت أنهن غير لائقات وكانت محقة.

أفيق من شرودى. أراها نائمة مغمضة العينين بلون باهت. اشعر أنها تتحفـــز ثائرة كأنها ستقوم بيننا كزوبعة تنطلق كعهدى بها. أنكمش إلى داخلى. أنظر إليهم فأجـــدهم حزانى باكين. أسأل نفسى أهكذا سأكون مثلها يوما. ترعبنى الفكرة فتتساقط دموعى خوفـــا. إحداهن تمسك بى تبعدنى شفقة بى أن أنهار.

* * *

نـــكـــــــــدى

أجلس على الكرسى فى مواجهة الباب فأرى الداخلين والخارجين إلـــى المقهـــى. أتملى الوجوه وأرصد الملامح. الداخلون يلقون النظرات إلى ما لانهايـــة يمســـحون المكـــان بعيونهم فى خطوط مستقيمة إلى الكراسى حول المناضد الخالية إن كانوا حزانى. الآخـــرون ينظرون باسمين بحثا عن الأصدقاء والخلان حول المناضد المشغولة بألعاب المائدة.

بين الأقدام يمر صبى ينقر على الصندوق منبها السارحين إلى أحذيتهم المتربـــة. من البعيد يقترب الرجل رافعا يده عليها طاولة المشروبات والأخرى تحمل النرجيلة فى خفة، وصوته يرتفع مترنما بأسماء المشروبات للسادة الجالسين مذيعا أسماءهم على الملأ يعلـــن وصولهم.

وحيدا أترقب اللاشئ. أحدهم يجذب الكرسى مستأذنا الجلوس إلى طاولتى الخالية. أهز رأسى موافقا تمضى الدقائق صامتة بينى وبينه والنظرات الحيرى المتســـائلة تتـــراوح بيننا. أحس الألفة معه لكنى أخاف ألا يتقبل كلماتى. نظراته طيبة مرهقة وحزينة.

يقول الرجل تبادلنى. أرفع حاجبى متسائلا ماذا؟

ــ تبادلنى.

ــ ماذا..!! لا أفهم.

ــ أنا مثلك حزين حيران تؤرقنى مشكلتى وأنت أيضا أليس كذلك؟

ــ نعم.

ــ أحك.. سوف نهدأ لو فضفضنا همومنا.

ــ أنا لا أحكى أسرارى للأغراب.

ــ لست غريبا بعد قليل ستعرف أننا أصدقاء.

ــ ربما.

أجدنى منساقا أحكى همى وأغمض عينى متحدثا كما لو أعترف إلى داخلى أنى ضعيف مهزوم كئيب التطلعات والتوقعات. يسمعنى الرجل باهتمام. يواجهنى.

ــ أنا مهموم أحكى لك ما أعانيه، وقد توافق أن نتبادل.

أبتسم فى حيرة. كلامه لا يشبه الكلام. ترحينى ابتسامته المتفائلة. أجد مشكلته هزيلة وهـــو ضعيف أمامها. لو كنت مكانه سأصبح أقوى فأجابهها متغلبا والرابح فى التبادل المزعوم.

أوافق ساخرا. يكلمنى جادا عن اتفاقنا. يقول أنه فى الإمكان التراجـــع إذا أردت. وكيف يتراجع إنسان عن حياته التى كانت. معقول!! أمل بدأ يراودنى.

عندما تلفت كان الرجل قد اختفى وقد وضع جنيها فوق الطاولة ثمنا للمشروب. أمسك بالورقة أقلبها فأجدها حقيقية والرجل قد راح بعيدا. أتعجب وألملم حالى منصرفا. كأنها كانت مزحة أعادت إلى روح الابتسام فكانت المرئيات أمامى ضاحكة نظيفة والوجوه بشوشة تمضى فى سلام.

قرب بيتى كانت المصيبة التى لم أتوقع. رأيت البيت منهارا. أسقفه فوق بعضها والجدران اندفعت للخارج فى هدم كبير وتحت ذلك كل عمرى الذى راح. أفيق على سرير المستشفى . يقولون أنى أهذى منذ أيام ولم يعرفوا عنى شيئا فلا أوراق فى جيبى.

أكز على أسنانى الآن فهمت الصفقة التى أتممت. خدعنى الرجل ودفع لى بمصيبته لأكون أنا ضحية. رحت إلى المقهى ووقفت بالباب أنظر للداخل بنظرات مستقيمة أمسح المكان بحثا عنه. فوجئت به جالسا كأنما ينتظرنى وعيناه معلقتان بالباب. قام الرجل قدرى واقفا تحية لى وعيوننا مشتبكة فى لحظه لقاء نادر كان فيها كل الكلام. لما جلسنا وضع يده فوق يدى.

ـ أنا عارف ما حدث، لكن ما باليد حيلة.

ـ أريد نكدى الذى أخذت. قانع أنا به.

ـ ليس الأمر بيدى. لكنى أساعدك عندما توافق.

ـ أفهمك..لا.. لن أدخل تجربة أخرى.

ـ أنا العبد المأمور. أمامك نكد جديد سيعجبك. إذا أخذته ربما كنت أسعد حالا.

ـ أليس هناك غير ذلك؟ أريد نكدى الذى عشت.

ـ .. .. ..

عندما تلفت كان الرجل قد اختفى وجنيه آخر فوق الطاولة أمسكته بيدى كأنما منقذى.

يأتى صباح أغبر كئيب وهموم عمرى جاثمة على صدرى لا أكاد أتنفس. أدخل مكتبى فيرن التليفون يحمل الخبر الذى انتظرته عمرى. أخيرا أصبحت الكبير هنا. فجأة اختارونى من بين الصفوف. أنا الحاكم الآمر الناهى المطاع. الأبهة والسلطة فى يمينى. كأنما مصباح علاء الدين خادمه تحت أمرى. كل ما حلمت به أنا فيه الآن أمارس حرمانى الطويل. أرفع أناسا وأهدر أحلام آخرين. أسمع الدعوات واللعنات بالخراب ممن اعتقد أنى ظلمته. لا آبه لما يقال. قلمى يروح بسهولة على الأوراق فى عنجهية متكبرة أمارسها بلذة.

ينقلب الحال أجدنى مسجونا. يقرأ النائب كشف التهم التى وجهوها. عشرات السنين من السجن فى انتظارى. لم أسرق شيئا أبدا. لفقوا لى التهم بالباطل. لم يسمعنى ولم يفهمنى ولم ينقذنى أحد.

أهرب من سيارة الترحيلات. أجرى إلى المقهى. أجده فى انتظارى باسما فى هدوء.

ــ أريد نكدى يارجل.
ــ لقد قايضتنى بشرف. مرتين أنت فعلت.
ــ ساعدنى.
ــ نكد آخر بانتظارك لو أردت.
ــ أنا هارب من السجن ليس لى ملاذ. أين أروح ؟
ــ تقبل ما أقدمه لك.
...

اختفى الرجل والجنيه الثالث فى يمينى ألقيه بلا اكتراث فوق الطاولة.
أمشى بملابس السجن فى الطريق. لا أحد ينظر إلىّ. أجلس عند شاطئ النهر أبكى حالى.
تقترب واحدة من بنات الليل. لم تعرض نفسها، بل وضعت يدها فوق كتفى تسألنى أنت هارب جوعان. تعال معى. مشيت ذليلا إلى جوارها حتى وصلنا بيتا دخلناه.

النعيم المقيم فى صالات مكيفة. طعام وشراب وحسان. مال وقمار وناس يروحون ويأتون. أنام وأعيش هانئا. كل ذلك يدور بإشارة منى. منقذتى إلى جوارى تناولنى كأسى. دائما أشربه باردا إلا الأخير.

تتوقف يدى مع الزمن وعقارب الساعة ونظرات الداخلين. صورى مع منقذتى تملأ الصحف والمجلات وفضيحة تهز العاصمة. أسماء المسؤولين والراقصات اللامعات والمغمورات اللاتى حلمن بالسعد معنا.

يقولون قواد شاذ رأس الشبكة. لم أرأس أحدا. لم أكسب شيئا. فقط أنام وآكل وكل شئ يحدث تلقائيا. تستروا خلفى وأنا فى المواجهة أمام الناس. لا أستطيع إخفاء عارى مهما تكلمت. الصور والاعترافات والأقوال تديننى حتى أمام نفسى. ذليلا فى الركن أبكى نكدى الذى أنا فيه والذى راح منى.

أجد الرجل لم يصل بعد والمقهى خال إلا منى وعيناى ملتصقتان بالباب فى الانتظار. يمر الوقت كئيبا متثاقلا. يخبط الصبى على الصندوق أضع قدمى فوقه غير مبال. أحتاج لمن ينظفنى من الداخل. أرى الصبى يريد الأجر ويبحث عنه.

البحث إذا هو الحل. أنا جالس أتلقى ما يجئ ولم أكن إيجابيا. هذه المرة سأكون. لمعت الفكرة وبدأت الابتسامة تأخذ طريقها إلى شفتى الجالس عند قدمى يعمل بهمة كأنما ليس فى الكون غير حذائى يقوم على نظافته.

قبل أن تشمل الابتسامة وجه الصبى كاملة فاجأنى الصوت ينادى قهوة سادة للأستاذ وصمت عن الاسم. ألتفت لأجد غريمى يشد الكرسى فيجلس إلى جانبى كما كل مرة. امتقع وجهى فإنه منذ عرفته والمصائب تنهال. لا.. كانت تنهال من قبل متحملا إياها ومصائبه لا قبل لى بها.

أمسكته من ذراعه ورحت أستحلفه أن يعيد نكدى. وجامد كتمثال لا يهتز يقول كان اتفاقا رضيت به.

ــ أنا لم أرض. وجدته أمامى فوافقت ساذجا. لم أدر ما سيكون.

ــ ولن تدرى أبدا.

ــ آه. كلنا لا ندرى. وانزلقت دموع صامته من عينى ولم أكن نادما، فقط أتألم بشدة.

ــ أنا جئت إليك.. هل لك حاجه بى.. أو أمضى.

ــ لا. أنقذنى أنا على شفا الهلاك.

ــ أنت تضيع نفسك. تريد شيئا جديدا.

ــ لا بل أريد ما راح منى. تعودت عليه. أحبه. لا أستطيع العيش بدونه.

ــ أنت تتكلم عن نكدك القديم.

ــ لا أريد جديدا منك.

ــ ما باليد حيلة. أنت ملول. لا تطيق شيئا. تحلم بالخلاص فقط. لابد أن يكون لك واحد.

الجنيه الرابع كان فوق المنضدة والرجل اختفى كما كل مرة. كان حذائي يلمع جيدا وعينا الصبى تتطلع إلى الجنيه فأعطيته له فاتسعت ابتسامته.

* * *

صاحبة القوام السمهرى (من مجموعة ليلة قطع النفس)

١ – عسل البنات

رفعت الجميلة عينيها إلىّ. رأيتهما كزنبقتين تتفتحان ألقا. أنا لم أر زنابق من قبل. الآن أستطيع أن أصفهما بعد أن استوعبت الصورة كلها. أطلقت عيناها شعاعا ونداء ارتدا على عينىّ. ارتسمت على الشفاه المتوهجة بسمة تفتحت دافئة ناعمة.

أنا لم أعرف أن هناك نارا دافئة ناعمة. أقدر الآن أن أحكى عنها بعد أن استوعبتنى الشفاه. الشعاع لم يكن ضوءاً كالذى أدركه. كان غريبا أن أرى شعاع الحنان يمضى نحوى ويلتف حوالىّ ليضمنى من بعيد. بلا مقاومة استسلمت بإرادتى، فاستلمنى النداء يسرى فى وجدانى ويروح متشعبا فى مسارب القلب والعقل والوجدان والدم.

لما تلامست أيدينا كان عهدا بدأت حروفه تنساب عبر الأنامل والكفوف والأعطاف. تطاير شعرها راقصا يعلن فرحة، وأنغاما تصوغ لحنا رقيقا انطلق من دقات قلبين. تقابلت العيون تحكى حياة مضت وحاضرا قلقا وأياما تتمناها، اتفقت دونما كلام أن تتناسى ما كان من أعمال الزمان والناس، ثم أغمضت فراحت أحلام تتلاعب يقظى فى الوجدان، تراءت بيضاء لامعة، خضراء ناعسة، وردية صاخبة، زرقاء عميقة، وحمراء كثيفة وسوداء مخيفة. ينبض قلبانا فى وجل، وتتطلع العيون إلى لقاء، فتبتسم آملة لتتقابل أناملنا فى رجاء.

***

لما نظرت إليه كانت عيناه مزروعتين فى وجهى ترمقاننى بعمق كأنما ترسماننى داخلها. الحق أنه اقتحمنى وأصابنى بالرعشة اللذيذة. كم هو رائع أن أجد أحدا يهتم بى.أحتاج إلى رجل بجانبى بعد إحباطاتى المتتالية فى الفترة الأخيرة والتى قاربت أن تصيب ثقتى بذاتى. صحيح أنى لا أندم عندما أوافق أو أرفض. هذه المرة الأمر مختلف.

هل أنا مجنونة حتى أقبل أن يلمسنى. لا بأس فلن يحدث شئ وأستطيع أن أوقفه عندما أريد، لكنه يسمعنى بعينيه بينما أحكى. أراه مندمجا مع حروف كلماتى كأنما يعيشها كما أنطقها. يهتم بالتفاصيل ويعبس وتنفرج شفتاه فتجلجل إبتسامته داخلى قهقهة أحسها صادقة صادرة من قلب طفل سعيد. هكذا شد إنتباهى وجذبنى ثم ربطنى إليه رغم أنى لم أسمح، ثم وجدتنى بجواره استمتع بحكاياته وربتاته الحنون تهدهد أناملى بثقة أحببتها.

أفيق مما أحاطنى به. أخلو لنفسى هاربة أحاسبها كيف تركته يغوص داخلى فى عمق عواطفى. أبكى كمدا وضيقا من نصيبى فى الحياة. أتمرد على ما كان. أقرر أشياء لا أستطيع تنفيذها. أحس روحى تنفجر شظايا داخلى متبرمة من ضعفى. فى الصباح أتمنى رؤيته ليلملم فتات عواطفى الشريدة فى أنحائى، ليبرد نارا تلسعنى، ويوقف تأرجح ذاتى. أريده وأرفض حياته التى ربما لن تناسبنى غدا. أقسو على نفسى وعليه داخلى، ثم لا أجرؤ أن أواجه بما أنوى. أشفق أن يعبس لحظة. أجبن أن أقول فلا أفعل. أتردد لاهثة ملتاعة حيرى كارهة ضعفى وحبى.أعلم أن نهاية الحب الذى ولد مبتسرا مؤلمة. أبكى بعيون مفتوحة بلا دموع ويدى تضم حنان أنامله لأمضى معه يوما جديدا فى حيرة لا يدركها بعد. أعرف أنه يصدقنى ويمكننى الهروب بعيدا. لكن .. قلبى تمرد وينزلق نحوه بشدة .. أخاف أن أربك حياته قبل أن تضيع منى الأيام .. فلا أقدر..

***

٢- صباح الخير

طارق- إمبارح كنت رقيقة زى الفراشة..
صفاء- إية الصباح الجميل ده.
- وطيبة زى الحمامة.
- إيه الأخبار ؟
- افتكرينى بقى النهارده؟ .. عندك واجبات متأخرة.
- حاضر ح أعملك الحاجات بتاعتك.
- ياسلام.. طيبة!!!!!!!
- شفت الوداعة.
- حمامة بقى.
- علشان بس لسة صاحية.
- وبعد شوية؟ .. إياكى..ماتقوليش أحسن يغمى عليه.
- الوحش الكاسر طويل الناب.
- مأفتكرش إنك قاسية كده.
- جدا فوق ما تتصور.
- الخوف من المجهول أقوى... زى ما أخوفك بالعسكرى كده، وهو لا يودى ولا يجيب. ح تسمعى الكلام والا انادى لك العسكرى!!!
- يا ماما.
- تعالى فى حضنى ما تخافيش.
- لا إنت ح تجيبلي العسكري..!!
- وكل شويه أنادى عليه.
- بتخافى من إيه إنت؟
- الكلاب. الارتفاعات .. الضلمة .. الوحده ..المكرونة؟
- لا .. لا خالص ولا حاجة .. المكان الضيق.. ممكن .. المكرونة شوية بس لما تبقى بالصلصة.

طارق - غريبة.!! اتكلمى إنت...
صفاء - بمعني؟
- أسمع فكرك وأنا هنا بعيد هنا بدون صوت ولا صورة. أتخيلك بس.
- عاوز ترغي في إيه..
- قولى اللى ييجى على بالك من غير ترتيب أو تزويق براحتك خالص.
- زى المكرونه كده..؟ فيه إيه..تحليل نفسى ده؟
- فضفضة .. دردشة من جانب واحد زى ماتكونى بتكلمى نفسك فى المراية.
- لو كنت سيبتني من غير ما تقول كنت اتكلمت براحتى.

- مثلا فى المدرسة زمان .. فى الفصل كان كل واحد من الأولاد بيقول أبوه بيشتغل إيه. كان عندى خمس سنين. ولما الدور كان على قلت..أنا بابا بيشتغل وزير .. كلهم ضحكوا .. وأنا لسه فاكرها من يومها.. وعلشان كده ما بكذبش أبدا.
- أصلك وسعتها أوي.
- بأحس إن الكدب بينكشف طوالى.
- فلتت منك دى.
- عمرى كان خمس سنين ياعالم.
- لما تسبك الكدب وبتكون ماهر.. مابينكشفش.
- الكدابين كتير عندنا.
- أيوة أكيد.
- ولما كانت لك ضفاير والبنت شدتها فى الفسحة... كملى إنت.
- مش بقولك عاوز تتسلى على ، مكانش عندي ضفاير.
- كملى.
- شعري كان قصير طول عمرى. سجل عندك أول عقده.
- و ...؟
- كنت سهنة وأعمل العملة ومحدش يحس بيه.
- إحكى..
- وكان الولاد بيحبوني ... سجل تاني عقدة، شقية من صغري.
- انا معاكى احكى طوالى...
- .....
- .....
- .....
- ..... شفتى كلامك لذيذ إزاى..!!

***

<u>قال الراوى.. وكتب طارق</u>

<u>إقرار وتعهد</u>

أقر أنا .. طارق .. بالجمال والدلال والرقة والحنان والعطاء لصاحبة القوام السمهرى .. صفاء .. وأتعهد بأنى لن أبادرها أو أفاجئها أو أغدر سواء بالقول أو الفعل فى أى يوم أو ليلة. وأقدم هذا وأنا فى صحيح قواى وبكامل إرادتى وعن طيب خاطر غير واقع تحت إغراء أو تهديد. وفى حالة المخالفة فإن المتسبب يعرض نفسه لجزاء صعب يختاره صاحب الحق كما يشاء وفى الوقت والمكان الذى يعجبه.

***

٣- يسعد مساك

طارق - إنت صحيتينى. عاوز أشوفك بسرعة.
صفاء - كده إدمان بقى ومش ح أعرف أعالجك.
- إنت السبب.
- لا .. مش ح أعرف أعالجك بجد.. أنا مش قدك.
- تسمعى كلامى .. وإنت ح تعرفى كويس.
- حاضر.....!! شفتنى وأنا مستسلمة؟
- كده احبك أكتر.
- يااه ...أنا مبسوطة أوى.
- راضية .. ومبسوطة... ومستسلمة... وعاقلة أوى.

***

طارق - أسالك عن جمالك. خللى شويه لبكره.
صفاء - إنت اللي خليتنى كده. أنا عمالة أقولك وإنت مش فاهمنى.
- ياه .. أنا فاهم أوى وألاعبك.
- من بعيد بس..؟ الطيب أحسن.
- عارف.
- إنت إيه رأيك؟
- نفكر سوا.
- إنت لذيذ.
- ممكن؟ أحبك وإنت لمضة ذكية.
- بجد أنا بضحك فعلا وأنا بكتب لك.
- عاوز مكافاة.
- مفيييييييييييييييييييش...!

****

طارق - إنت مثيره فعلا.
صفاء - بجد.. إنت شايفنى كده؟
- إنت عارفة كويس تأثيرك على.
- السبب مش منى.
- ماتخافيش طول ماإنت جنبى اطمئنى.
- أنا مش خايفة ... أنا بأموووووت من الرعب.
طارق - اللى يحب حد مايوجعوش.
صفاء - مفيناش من ضرب. حيقولوا علينا كلام ... ياسلام عليه.
- لا ..أبدا قطع لسانهم.
- يقولوا إيه طيب.
- البنت دى مع الراجل ده. ومصمصة الشفايف وتقليب الإيدين وياعينى.
- وماله.
- أنا بحس إنك بتتكسف لما أكلمك، مع إن أعراض الإدمان ظهرت، هرش في الدراع مثلا.
- والشفايف كمان؟

- مفيش شفايف، بس شعور بالموز واللبن في دمي والقصب في قلبى.
- تجننى .. أحبك لما تتدللى وأتحايل عليكى.
- لا خالص.
- طيب اتدللى وأتحايل عليكى وأحبك أكتر وتوافقى.
- مش كده أبدا.

***

طارق - تحرياتى بتقول إنك بتغنى وإنت لوحدك.. صح؟
صفاء - كنت بغنى إمتى؟
- قبل النوم. وبعد الحلم الأول كمان.
- يمكن ف الاستراحة؟ لية كل ده؟
- ألعب معاكى.
- مفيييييييش...!
- كل شئ فى الخيال ممكن.
- إنت حر.
- ماإنت معايا برضه ماتخافيش مش ح أسيب إيدك.
- لأ ... سيب إيدى.
- أحب شقاوتك.
صفاء - شفت بقى.
طارق - ح نشوف أيام جميلة سوا.
- اسمها صعبة آخرتها تعب.
- مش صعبة أبدا.
- ربنا يستر.
- لا مش فاكرة عنك حاجة.
- أصل إنت طعمة أوى.
- أيوة صح .. عارفة... هاها.
- وتفكيرك عالى خالص.
- ياسلام..!
- يااااااااااااااه دي السكة طويلة بشكل.
- أبدا. . اهم حاجة يكون نفسك طويل.
- معاى مش ح تحسى بالمسافة..إحنا فعلا قريبين.
- خلاص ..مفيش مسافة بيننا.
- إنت قربت منى.
- وأنا قربت أكتر.
- ومش حاسس إن الدنيا حر..!!
- غريبة.

***

صفاء - ما أنا حقول لماما إنى معاك.
طارق - وأوصلك بالليل لفوق زى الأفلام وتعزمينى..؟
- كنت ح أعملها إمبارح. ممكن أعزمك في وقت بدري عن كده شويه.
- إنت عازمانى على طول وفاتحة نفسى ع الدنيا.

- يا رب على طول.

***

- إمبارح كنت هادية وجميلة..؟ كنت لذيذة زى عوايدك، أنا احبك كده.
- دى أول مرة حد يقوللي كده ،بيحبوني وأنا شعنونة ونغشة أكتر.
- بس هادية لها لذة تانية.
- قصدك مستكينة.
- مش ضرورى مستكينة.
- هادية ألذ ..طيبة .. حالمة .. ناعمة.
- يااااه كل ده ... أنا كده فعلا...؟ إحساسك رقيق.
- بتبقى حالتك حلوة كل مرة لها طعم مختلف وجميل.
- إنت اللي لذيذ وحسيت إننا نعرف بعض من زمان أوى.

طارق - هو ده التآلف والتفاهم والتناغم والانسجام النفسى والروحى.

صفاء - بأحس إنك محتويني أوى، لدرجة إنى مش بتكسف منك فعلا.

- ساعات بتكونى مكسوفة فعلا لكن مش حاسة ووشك بيحمر أو ينخطف ويبان عليكى . حفظتك خلاص.
- تزعل مني لو قلتلك إنى خايفة إنه في يوم من الأيام أكون مصدر قلق أوحزن لك.
- اطلاقا .. ولا حيكون وعمرى ما ح أخليكى حزينة أو تعبانة منى. لما بـأفتكرك أحس بالراحة والسرور .. والكلام معاكى يفتح النفس للحياة.
- وإنت كمان طيب .. بجد إنت طيب أوى.. ربنا يخليك لى وميحرمنيش منك أبدا.

طارق - معاكى أكون مسترخى فى هدوء و أعصابى بتستريح.

صفاء - أنا مبسوطة إنى بحسسك بكده ويا ريت أكون كده على طول.

- إنت الدوا.
- بس حاسب ده ممكن يبقي إدمان.
- ما خلاص.
- يا روح قلبى ده إنت حالتك متأخرة أوى.
- كنت فين من زمان.
- موجوده ..إيه المشاعر دي كلها ، أنا مش قد كل ده. كل الأحاسيس دي أنا السبب فيها؟
- فتحى أو غمضى .. كلك على بعضك جنان .. مين صاحبة القوام السمهرى المياس والقلب الحساس؟
- ده كتير عليا بجد ... مشاعرك رائعة.
- شفتى إنت قد إيه عندى؟ فرحان بيكى وقلت لك.
- بجد إنت فعلا عملت لي قيمة كبيرة قدام روحى.
- استريحت إنى وصلتها لك وبس.
- عرفتى ليه كانت الرعشة؟
- عرفت....

****

قال الراوى .. وعادت صفاء إلى البيت تدور فيه كأنما تكتشف المكان فى سعادة، وذراعاها تحتضناها فى حنو ورشاقة. راحت الجميلة تستعيد الكلمات، ثم أغمضت عينيها تستعيد فى خيالها الرهيف ما كان. ارتسمت ابتسامة فى دعة على وجهها الملائكى المتفائل تردد لنفسها أنا أحب هذا الرجل.

***

٤ – لحم ودم

طارق – وحسيت إنى مش ح أشوفك لمده طويلة، وإن دى دى أطول مرة تبعدى عنى، رغم إنى عارف إنك مش ح تغيبى. صحيح كل وقت له إحساس مختلف.
صفاء – إمبارح أنا كنت سعيدة.
– الليلة حلمت بيكى. كنت قاعدة على الكرسى جنبى وبتبصى الناحية التانية ولا حاسة بى كأنى مش موجود. كان حلم وخلاص.
– مش حعملها عمري. ده علشان إنك عرفت إني ح أكون بعيد..
– انت بعيدة من أسبوع .. كتير كده على.
– بتحسبها من آخر مقابلة..!
– أموت فى كلامك. أنا عاوزك اربعة وعشرين ساعة صاحية طول اليوم. ده احساسى أنا.. وحدى؟
– عشان تزهق مني.
– مش ح يحصل.
– بتقول كدة عشان بنتقابل وقت قليل.
– والإحساس؟ أنا أكلمك عن الاحتياج رغم اننا بنقعد كتير ساكتين.
– بيكون فاصل للحوار.
– ما إحنا متفقين وبنتلاقى فى حاجات كتير، وبيننا تفاهم ، أكيد الكيمياء بتاعتنا متوافقة.
– وكمان الطبيعة والتاريخ المتعرج وبصماته الصعبة.
– يا عيني علي الأحياء اللي...!
– كلمينى عنها.
– هادية وناعمة وممتعة .. كلها شقاوة.
– أنا عاوزك جنبى أمسك إيدك. حقيقى لازم تعوضينى عن دموع إمبارح اللى نزلت لجوه؟؟
– بجد كان فيه دموع؟
– ولا مرة قلت لك غير اللى جوايا.
– أنا عاوزة أكون سعادتك مش دموعك. دا حتى أنا إمبارح رجعت مبسوطة من كلامك وكنت مرتاحة.
– كان باين عليك.
– شفت بقى..!
– خلينى أنا العاقل. أهدي فيكى وإنت ... جدا.
– مالك النهاردة ، فيه إية..؟ حاسة إنك مش عادى.
– عندى حاله وجد وهيام صباحية خوفا من الفراق لدرجة إنى مغسلتش وشى لغاية دلوقت.
– شفت بقى إنك مش طبيعي إزاى..؟ في إية بجد ، كلمني طيب، إنت قلقتني عليك.
– عارف وحاسس ومش عارف أطلع م اللى أنا فيه. ما هو إنت مش بتصدقى إنك لما بتمشى.... بتكونى معايا بعدها لوقت طويل.

***

كتب الراوى أن الرجل راح إلى الممقهى وجلس متجهما متسلحا بشراسة ونكد. وبعد أن وضع الساق فوق الأخرى وجذب نفسا طويلا من الشيشة، نفث الدخان فى خيط طويل مهموم، قال يؤكد أن المستحيل هو أن تتزوج ابنته فى شقة حماتها، ثم تكون باقى أيامها فى غرفتها وحيدة منبوذة تجتر أحلامها الكسيرة. وأن من الضرورى أن يلتحق طارق بعمل مناسب ليفتح كباقى الناس الطبيعيين بيتا من ثلاث حجرات يفرش بعضها ويملأه بالأجهزة الحديثة بعد أن يقدم الشبكة والمهر متحملا مصروفات الخطوبة وحفل الزفاف الذى لابد أن يكون لائقا كأفراح بنات العائلة اللائى سبقن. كما أنه لا يقبل أن يكون فى مقدمة الناس المتنازلين عن سعادة بناتهن.

ظل الرجل يردد ويكرر ويجذب الإنتباه ليتأكد أن طلباته قد استوعبها أبو طارق، ولما تأكد استطرد قائلا أنه يعلم جيدا وكما يعرف الجميع أن فرص العمل قليلة بحق، وأن الأجور ضعيفة، والبيوت غالية الايجار ونـــادرة، وأن ذلك قد يحتاج وقتا ليكون فى إمكان طارق أن يحقق المطلوب، وأن من المناسب .. وأن الأصـــول تقتضـــى .. والأمور قسمة ونصيب.. وأن .. وأن..

أبو طارق عيناه راحتا تطوفان بالمجال البعيد. ربما كان يبحث فى الأفق عن عمـــل لابنـــه، أو مسكن له فى وادى المستحيل، أو ثروة تهبط عليهما من السماء، ثم قام واقفا وألقى السلام بلا ابتسام وخطـــا نحو الطريق يبحث أثناء سيره عن كلمات يقولها لأم طارق التى تنتظر.

***

عاشق من الرامـات

"واحدة من الحكى القديم"

إعتاد مسعود الجلوس فى دواره مساء الأيام التى ينتهى فيها من أعماله مبكرا، فيلحق به عماله وأقاربه، ثم ينضم إليهم أصحاب الحاجات فى القرية وينهون معه اتفاقاتهم وتجارتهم فيكسب ويربحون. لذا راح اسمه يتردد فى الشوارع والبيوت والمتاجر والجلسات الخاصة.

بعض الناس يرددون قصص نجاحه، وآخرون يبحثون عن فرصة يتعاملون فيها معه، والباقون يحكون وهم جالسون لايطمعون إلا فى التسلية والتمنى، وربما أحسوا ببعض الغيظ من الفقر أو الحظ والنصيب. مسعود يرسل برجاله إلى سوق القرية والبلاد المجاورة وربما إلى العاصمة فيعودون وقد حملوا الأشياء فوق السيارات الكبيرة يضعونها فى مخازنه، وبعد أن تعددت و تشعبت تجارته أصبح من الصعب عليه هو شخصيا أن يحصى ثروته وما عليه من أموال لكل هولأء الذين يتعامل معهم.

أهل قرية الرامات يتطلعون دائما بإنبهار إلى الشيخ مسعود. يرون فيه قمة طموحاتهم وآمالهم، فهو يملك مالا كثيرا وبيوتا وحدائق الموالح والمانجو وأخرى مزروعة بمحاصيل الحبوب والقطن، ولديه أيضا حظائر عديدة للأبقار والجياد يعمل بها نفر غير قليل منهم.

لم ينجب مسعود طوال عشرين عاما هى عمر زواجه من زوجته الأولى. كذلك لم يسعده القدر مع زوجاته التاليات التى يصعب أيضا عليه أن يتذكر اسماءهن، وكلهن تزوجنه طمعا فى ثروته، فى الوقت الذى كان طامعا فى الولد الذى لم يرزق به من أى منهن، وظل ذلك حلما يراوده باستمرار، فمن سيرث كل هذه الثروة.

كان طريق مسعود خلال هذه السنوات يمر عبر الطبيب والكاهن والعراف والدجال، وكلهم يقودونه فى طريق يراه مسدودا فى النهاية، ولكن لم يحبط أبدا وظل على حاله يتردد من واحد لآخر إلا أنه لم يوفق فى أى مرة.

كلما تذكر مسعود خسارته بعدم وجود الولد إلى جواره يزداد حزنا، ثم يتوتر وربما يتعارك مع من أمامه، فيتعجب الناس غير مدركين أحواله. كان عندما تلم به هذه المشاعر الصعبة يظل فى غرفته لايدخلها عليه أحد أبدا، فيظل يصلى ويدعو الله ما يشاء حتى يغيب

النهار أو يطلع الفجر وهو على دعاء واحد أن يرزقه الله الولد مهما كانت صفاته فهو سوف يرضى بالمقسوم.

فى الحلم رأى مسعود نفسه فى السوق، والرجل أمامه يمسك مقود فرسة جميلة ظل يحدق فى جمالها ورشاقتها مندهشا من قوتها ورقتها فأحبها، وعندما هم أن يكلم الرجل وجده جاره الحاج كريم يساوم مشتريا يعرض له ثمنا كبيرا، إلا أن مسعود أصر أن تكون من نصيبه فرفع السعر مرات فى مواجهة الغريب الذى يتوسم أن يحصل على الفرسة النادرة. الحاج كريم سلم مقودها إلى مسعود بعد أن أخذ ثمنها وظل يدعو أن يبارك الله له ويصلح له الحال.
راح مسعود إلى منزله وفى المساء ولدت له الفرسة مهرا صغيرا أحبه كل من رآه، وعندما كبر وضع السرج فوقه وما أن هم بالركوب حتى رفع قدميه يقفز فى الهواء ليسقطه على الأرض متأوها يسيل الدم من مرفقه وركبتيه، وفر المهر الصغير إلى آخر الحظيرة ينظر إليه بإشفاق. فتح مسعود عينيه غير مصدق ما يحدث وجسده يرتعد والدموع تبلل وجنتيه، فاستعاذ بالله من الشيطان وبقى حائرا يتذكر تفاصيل حلمه العجيب حتى بان ضوء النهار.
ليله كانت صعبه للغاية، فظل يفكر طوال نهاره محاولا فك الرموز يحس بالإرتياح، وإن ظل حائرا سارحا حتى حل عليه المساء.

لم ينتظر مسعود عرافة القرية أن تمر عليه كما تفعل دائما، فإن مشاعرة تتصارع مع الهواجس تدفعه لأن يروح بنفسه ويدق بابها بعدما انتصف الليل.
صره الرمال انفتحت وساوت العرافة السطح بينما يدها تلملم الأصداف والقواقع فى المنديل ثانية وترجها معا لتتخذ ترتيب الحظ عندما تلقيها فوق الرمل لتتشكل متناثرة. تلتقط منها الكبيرة، تعطيها للعم مسعود فيهمس لها بما شاء، والعرافة تنظر تستشف ماوراء الزيارة النادرة. تعرف كل آماله فقد خبرته سنوات كثيرة ولم تخمن أنه يسأل عن الولد بل كانت متأكدة تماما من هذا السؤال.
قالت العرافة.. ياعم مسعود أنت مقبل على زواج، وسوف يولد لك فيه. لكن الأمر ليس هينا فإن هناك من يتقدمك. خذ حذرك لتنال النصيب، أيضا سوف تعانى بعض المتاعب. أستطيع أن أساعدك فيها إن أردت، ومدت يدها تتناول مبلغا من المال زاده هذه المرة فرحا ببشارتها.

أتت العرافه فى الصباح تطرق الباب ودخلت إلى مسعود. قالت لابد أن تحكى الحلم كله فأفسره لك. قالت إذا فالقضية كلها عند جارك الحاج كريم. ابنته فاطمة بلغت السابعة عشر أول الشهر الماضى، وهى عروس جميلة تليق بشيخ تجار الناحية. عقبه واحدة أمامك، تخطوها فتكون لك وتلد لك الولد، فقد تقدم لها ابن عمها سليم، وهو يحبها للغاية ولن يرضى أبدا أن يتركها. فإذا قدرت على إبعاده فإن أباها سوف يوافق على هذا الزواج.
قال: هذا الموضوع هين إن شاء الله وأعطاها مبلغا آخر فرحت به وانصرفت وهى تبتسم.

***

فوجىء الحاج كريم بطلب مسعود، فالجميع يعلم أن سليم ابن عمها سيتزوجها فى موسم جمع القطن هذة السنة، وأطرق يبحث عن كلمات يعتذر بها عن طلبه فهو فى سنه تقريبا إن لم يكن أكبر ببضع سنوات.
قال الحاج كريم: إن هذا الأمر صعب تماما، فقد تقدم إليها عديد من شباب القرية ورفضتهم جميعا لأنه أعطى كلمة ووعدا ومن الصعب التراجع. كذلك سليم إبن عمها لن يتحمل أن يتزوجها غيره. لذا فإن ذلك قاس للغاية ومحرج للكل.

اقترح مسعود أن تكون فاطمة الحكم، وطلب إذاا أن يلقاها ليعرض عليها طلبه. فى المساء قالت زوجة الحاج كريم. إتق الله ياحاج، ليس هذا بالأمر السهل فإنك سوف تمزق قلب ابنتك وابن أخيك معا، وسيتقول الناس عليك وعلى مسعود ويلوموننا جميعا، ولن يسعد أى منا بسبب هذا الزواج، ورفعت يدها فوق رأسها تشهد الله على رأيها وتدعوه أن يلهم الحاج كريم القرار الصواب.

أرسل مسعود إلى فاطمة مرتين يدعوها أن تحضر فى أمر هام، ورفضت فاطمة أن تذهب إليه وعندما علمت أنه يريد أن يحدثها فى أمر الزواج قالت: إنها ستتزوج ابن عمها الصيف القادم، ولاتنوى أن تتراجع بسبب المال والذهب والثروة التى يعرضها العم مسعود الذى حزن لهذا الرد الذى كان يتوقعه بالفعل.

صار سليم حزينا بسبب الأخبار التى وصلته عن طلب العم مسعود لفاطمة رغم أنها فى سن ابنته أو حفيدته. يندب حظه أن ماله قليل، متوقعا أن بريق الذهب سيغير محبوبته. وفى المساء كان يخطو ليلقى فاطمة يرجو أن يستريح ويهدأ بعدما عصف الرجل الكبير بأحلامه.
قال سليم باسما فى خجل: أهلا.. زوجة الرجل الغنى وصلت.
قالت فاطمة– أراك غير مطمئن بعدما سمعت الخبر.
– سمعت ماسمعه كل الناس. العم مسعود طلبك للزواج.
- ألم يقولوا ردى عليه؟
- أعرف. ولكن..!
- لكن ماذا؟
- قديما قالوا.. لا تأمن الحصان أوالنهر أوالمرأة.
- حتى أنا.
- نعم.. كل النساء متشابهات فى هذه الحالة.

- كيف.. أعطنى الدليل.
- الحصان.. مهما صادقته وأطعمته فإنه يوما سيرفسك. والنهر.. قد أعبره اليوم جافا، وفى الغد سأعود وأجده قد إمتلأ فيستحيل على عبورة ثانية. والمرأة.. تحتفظ بعهدها أربعين يوما بعدها تنسى. وأما العم مسعود، فإنه لابد فى الغد أن يكون مجنونا، من أجل ماله وذهبه وأرضه وسلطانه الكبير فى هذة القرية الفقيرة.

ابتسمت فاطمة وقالت:

- لو فرشوا الأرض بماله طريقا من هنا حتى مشرق الشمس فلن أجد مايجعلنى أتزوجه.
- أنا حزين القلب. أحس أنك ستقبلين الزواج بالعم مسعود، وسيرضى أبوك لتعيش القرية الفرح يمتد أياما وليالى كثيرة، ولكن لابد أنى سأقاوم كل ما يحدث.

تسرب الحديث إلى العم مسعود وأحس أن الفتاة قد تهزمه، وفى ذلك ألم عميق، فلم يسبق لأحد من أهل القرية من قبل أن رفض أى طلب عرضه عليهم، بل كانت كلماته ترسم لهم بعض حياتهم.

قال لنفسه: لاتحزن سوف أنهى هذا الموضوع على ماأحب. فإن من يقاوم مسعود لابد أن يذهب بعيدا أو يموت إن رفض. والرضا لا بد له من وقت حتى تستقر الأمور.

عندما قاربت الشمس المغيب أرسل العم مسعود إحدى عاملاته إلى فاطمة تدعوها مرة ثانية أن تحضر إليه، فوجدتها جالسة مع سليم تبادله الحديث.

قالت - العم مسعود يريد أن يرى فاطمة.

قال سليم - عودى إليه، وقولى أنها لن تأتى أبدا.

وفجأة وقفت فاطمه فى تحد تقول:

- أبدا.. قولى للعم مسعود أنا آتيه الآن. أما موضوع الزواج فهو غير مطروق البتة. وتحولت إلى سليم تقول سواء ذهبت إليه أو لم أذهب فإنى لن أتزوجه، وأقسم أنى لن أتزوج غيرك. سأذهب حتى لايحس أنى أهنته مرتين فهو من أكبر رجال القرية ويستطيع أن يضايقنا كلنا، دعنى فإنى لن أخسر شيئا.

قال سليم – أنا غير مرتاح، وأحس بالحزن العميق فربتت على يده تطمئنه.

دخلت فاطمه وارتدت أحلى ملابسها ونظرت فى المرآة تطمئن على جمالها وقالت لأمها كاذبة سأذهب إلى بيت سليم بضع دقائق وأعود بسرعة ولم تهتم بأن تسمع كلمات أمها التى ترد بها على همسها. سارت فاطمة بسرعة فى دروب القرية ولم تتوقف إلا أمام

مسعود الذى فتح فمه من الدهشة وقدم لها مقعدا وجلس بالقرب منها لايصدق أن مايفصله عنها نسمه هواء رقيقة فأصابه الدوار مبهورا أن فاطمة قد أتت وجلست أمامه بالفعل.
قال مسعود – أرسلت إليك مرتين، فأبيت الحضور، هل تخافين منى؟
ردت فاطمة – ربما لم تتح لى الفرصة.. فقط كنت محتارة.
مد مسعود يده إليها تحتضن كفها الصغير، وإحتفظ به برهة وهو يقول أعلم أن هناك شخص آخر تقدم لك، ولكن لم تتم الخطوبة بعد، لكنى أنا أيضا أحبك وأحلم بك زوجة لى. أريد أن أطمئن، ماذا يمنعك منى؟

- أنا أيضا أحبك كما كل أهل القرية، لكن ليس كزوج.
- وأنا أحبك وأريدك ولكن الزواج أولا.
- تقدم لأبى الكثيرون ورفضهم أو لم أوافق عليهم. سليم ابن عمى أولى بى. أنت تعرف ذلك. نعلم جميعا أنك أغنى رجل، وسليم فقير مثلى. لو تزوجتك فلن أشعر بالجوع والعطش وسوف أعيش حياة لاأحلم بها. أيضا أعلم انك رجل متردد. فلو وجدت من تفوقنى جمالا ستقول هذه التى أحبها أريدها زوجة. وأنت تزوجت كثيرا حتى الآن. تبقى الواحدة عندك بضع سنوات وعندما لا تنجب فإنك تتركها أو تطلقها، وعندك الآن أربع زوجات وكلهن أكبر منى عمرا، ولايمكن أن نعيش معا فى عصمة رجل يسب كل النساء ويضرب زوجاته عندما لاينجبن.

قال – ليس هذا كلامك. قلت أحبك للزواج. إذا وافقت، أعرف ماذا سأفعل.

قالت– من المؤكد إنك ستطلق واحدة منهن، أو تطلقهن جميعا ونتزوج، وكذلك بعد سنوات ستطلقنى أيضا، لتتزوج جميلة أخرى. أليس الأمر كذلك؟

قال – إذا قلت أنك وافقت، كل شىء سيكون يسيرا جدا.

- كيف سيكون ذلك..؟
- أمامك سبعة أيام تفكرى فيها وتتشاورين مع من تشائين وأنتظر أن أسمع الموافقة منك.
- ليس لدى غير أبى وأمى وسليم. أعرف رأيهم الآن، وأنا أمامك.
- لا.. لابد من المشورة فإن الحياة ستكون ممتدة أمامنا. ومد يده يصافحها. ثم قال إنتظرى. ودخل إلى غرفة جانبية وأحضرلها زجاجة عطر وأسورة ذهبية وقدمهما لها. لكنها إمتنعت وقالت: كيف أقبل منك هذا ونحن لم نتفق؟
كيف أشرح لأمى وأبى؟ وماذا أحكى؟ أنت تحاول أن تغرينى بالمال.

فمد يده وغطى كتفها بشال من الحرير، وحاولت أن ترفض، ولكنه لم يدعها تفعل، وودعها إلى الباب قائلا أمامنا أيام سبعة كاملة.

***

راح سليم إلى بيت عمه يرجو أن يلقى فاطمة هناك. استقبلته زوجة العم وعيناها تدور حائرة حوله تبحث عما تتشاغل به. يتناثر من شفتيها الكلام غير مرتب، فتوجس. دخلت فاطمة تبتسم تناوشة أن يبدأ الحديث تعرف أنه مشغول من زيارتها بالأمس للعم مسعود.

قـــال – الأن أيقنت أنك تخدعيننى. لقد تحول قلبك إلى مسعود وماكنت لتفكرى أن تروحىإليه، إلا بعدما نادت الثروة عليك وداعبت فكرك. نحن فقراء ولكننا نعيش بكرامتنا ومن عمل سواعدنا. قولى أنك لاتريدينه زوجا، وأنك على العهد معى، وأننا سنعيش معا فى سعادة. حلمنا بذلك سنوات، وأهلنا والقرية كلها ينتظرون زفافنا عندما نجمع القطن.

– تعرف أنى رفضت كثيرين ورفض أبى أيضا بعضهم، وخطوبتنا لم تعلن بعد، بل ولم تتم من الأساس، وحتى الكلام كان بين الكبار ذات أمسية كانوا يتندرون فيها ويتسامرون، ثم خطر لأحدهم أن يزوجنا فوافقوا وهم يضحكون، وعشنا السنة الأخيرة فى ظل هذه الكلمات.

– ماذا أسمع منك؟ هل حديث الكبار مزحة؟ وسنة مرت من عمرى أحلم بك زوجه لى، تضيع هباء هكذا.!

– أنت ابن عمى، وأنا أحبك، وعشنا عمرنا معا. ويجب ألا تحتد عندما تحدثنى.

- طبعا.. مادمت ستكونين زوجة الرجل الغنى، فإنك تصدرين الأوامر لمن هم حولك. وأطرق يفكر فيما يحدث بينما قدماه تقودانه إلى خارج البيت دون أن يقابل عمه أو زوجته، والغضب يتملكه.

****

عاد سليم إلى بيته حيرانا لايجد ما يفعله أو يقوله. يفكر كيف سيكون الأمر الأمر بلا فاطمة. وجلس لايبدى حراكا.

قالت أمه– إن كل رجل يجلس مثلك هكذا لابد أن امرأه حيرته. أخبرنى ماذا فعلت فاطمة؟ وجلست الأم مشدوهة تسمع ما حدث، تدمدم بالكلمات والدعوات على مسعود الذى بدأ يهدم زواج ابنها. قالت لاتهتم فإن الأمر إذا بدأ

هكذا فإنك الرابح، فلن تكون فى بيتك، لأن بدلا منها ستكون أحلى البنات، ودع الطماعة لهذا العجوز تسعد بماله مادامت أرادت ذلك، فلن يجبرها أحد أن تغير تفكيرها. فالكل فى هذه القرية يسعى للمال وكل مايحدث حولنا ليس حقيقة يراد بها وجه الله، بل من أجل أشياء أخرى. إصبر وسوف تحقق ما تصبو إليه من سعادة وراحة بال.

قال سليم- إن الدنيا قد ضاقت فى عينيه، لذا فإنه سوف يسافر إلى مدينة شيروت ليتحصل على ثروة كبيرة، ثم يعود وينتقم ممن حرموه السعاده. هذا قرار ويجب أن تهتمى بأختى وأخى حتى عندما أعود أفرح بهم وأعطى لهم الهدايا.

قالت أمه- يجب أن نناقش أمر السفر فليس هكذا تسير الأمور.

***

وقف سليم أمام عمه يقول

- لقد حضرت الليلة إليك لأنه كانت بيننا كلمة عن فاطمة. وبالطبع عرفت ما حدث أمس وأنها لاتريد أن تتزوجنى. لقد سحرها الذهب والمال والجاه. حتى أنت نسيت كلمتك، ووعدك أننا سنتزوج هذا العام. فقط أطلب أن تناديها لأحدثها أمامك.

قال العم- ماهذا الكلام الفارغ. هل تظن أن شيخا كبيرا مثلى يخلف وعده وينقض عهده مع الرجال؟ لن تتزوج فاطمة رجلا غيرك. لن أزوجها ألا لك. وصرخ ينادى فاطمة التى حضرت على عجل ووقفت متنمرة عندما رأت سليم وعرفت على الفور أنه يشكوها لأبيها.

قال العم- من الليلة لن تخرجى من البيت إلا لزفافك على سليم فى نهاية الموسم.

كانت المفاجأة عندما جلست فاطمة على الأرض ثائرة، وبدأت تبكى حظها قائلة أنها لن تتزوج ابن عمها حتى ولو أجبروها فإنها لابد أن تجد وسيلة تهرب بها من البيت ومن هذا الزواج الذى اتفقوا عليه دون موافقتها، وإنهم جميعا يظلمونها.

عند هذا الحد قام الأب غاضبا يلطمها بقوة ويركلها ويسب الأيام التى تطاولت فيها الإبنة على الأب فجذبتها أمها بسرعة إلى الداخل قبل أن يتطور الموقف.

قال الأب - أعذرنى يا بنى لما يحدث أمامك، والآن عد إلى بيتك واسأل الله أن يلهمنا حسن التصرف والصبر حتى نعالج هذا الأمر الصعب بحكمه حتى لانندم.

قال سليم - حسنا يا عم. لا تهتم كثيرا بالأمر، وانصرف. خرجت أم فاطمة إلى زوجها تلومه قائله هل تريد أن تقتل ابنتك يارجل؟

قال الأب - تعرفين أنى أعطيت كلمة لتكون فاطمة زوجة لسليم، ثم تأتى الآن وتعلن رفضها وعصيانها. فإذا وافقتها على رأيها فلن

يثق أحد بكلمتى ولا حتى أنت. وينتشر الحديث فى كل القرية أنى لست أمينا وفضلت مسعود وضحيت بابنتى وزوجتها له طمعا فى المال، وكسرت خاطر ابن أخى ليمشى بالعار وسطهم. هل ترضى لنا ذلك؟

قالت الأم- ليس فى الدنيا شىء مثل هذا يتم بالقوة. اللين مطلوب والحكمة أيضا، وكلمات طيبة سهلة تفتح القلوب والأبواب. ترفق بفاطمة ربما عادت كما كانت طيبة طبيعية. إن هذا الجيل قد قل حياؤه واحترامه للغير، واذا أجبرتها فقد يكون ذلك سببا أن نفقدها إلى الأبد. قم إليها الآن ربما تحرز بعض النجاح معها.

قبل أن يحل المساء ذهبت فاطمة إلى مسعود وحكت عما حدث بين سليم وأبيها، وأن البيت كله ضد هذا الزواج.

قال مسعود- الأمر بسيط أريدك زوجة لى. وأبوك لم يرد على بعد، وأنا مازلت عند طلبى.

قالت فاطمة- إذا الليلة تتفق معه على كل شىء. وإلا لن يكون هناك زواج.
الموقف حرج ويتطور بسرعة ولاأستطيع أن أتوقع موافقه أبى ولا كيف سيتصرف سليم وأمى حائرة بيننا جميعا.

ابتسم مسعود وربت على كتفها قائلا الآن استطيع أن قدم لك العطر والأسورة التى تركتها أمس. الليلة سأتفق مع أبيك على كل شىء.

أرسل مسعود فى طلب والد فاطمة الذى حضر وجلس مطأطئ الرأس يتأهب للإستماع، بينما عينا مسعود تدور محاولة إلتقاط فرصة للكلام.

قال - أنا مازلت أطلب منك فاطمة زوجة لى. أريد أن أسمع الرأى الآن.

ورد أبوها - لاتطلبها منى. أطلبها من المأذون. أنا لن أحضر هذا الزواج أبدا، وقام واقفا ينهى الحديث.

أرسلت الأم إلى أخواتها ليضغطوا على الأب فيوافق على زواج فاطمة، واجتمع الأخوال والخالات فى صف الأم، يتحدثون جميعا عن الحظ والنصيب والمستقبل العريض، بينما أعمام فاطمة يقاومون ويساعدون أخاهم فى مواجهة السيل الجارف للأمانى الثرية، وكان لابد فى النهاية أن تتغلب أحلام الثروة على أمنيات الحب الفقير لابن العم الذى صمم أن يترك القرية كلها.

****

أهل الرامات يتحدثون فى الحقول والشوراع والمقاهى والبيوت وجلسات السمر. كلامهم حول فاطمة التى ابتسم الزمان لها وستصبح سيدة القرية. الكل يجامل ويتقرب إلى فاطمة وأهلها، ربما تفتح لهم مجالا يحققون أحلامهم فيه.
كبار السن إنزووا إلى جانب يندبون الشهامة والمروءة وكلمه الشرف التى تآكلت بفضل المال فى الزمن الأسود الذى حل برجال القرية الذين تحولوا وليس فيهم واحد يمكنه مقاومة السحر العجيب. وتقلص عدد الرافضين كل يوم حتى أصبح الجميع متأهبين لسماع الأخبار حول موعد طلاق مسعود لإحدى زوجاته لتحل محلها فاطمة السعيدة.

انطلق آذان الظهر يدعو الناس للصلاة، بينما مسعود يتأهب لإستقبال المأذون، ولم تمض ساعة إلا وكان قد تخلص من إحدى زوجاته الثلاث. وبعد صلاة العصر اجتمع الناس فى دوار مسعود ليكونوا كلهم شهودا على عقد زواج فاطمة.

انطلقت الزغاريد مجلجلة فى سماء القرية، تعلن تمام الحديث السعيد لكل الناس، بينما إنشغلت النساء فى تجهيز وليمة المساء التى اتسعت لأهل القرية جميعا يأكلون ويأخذون معهم ماشاءوا من طعام.
ودقت الدفوف ليال ثلاثة يرقص فيها الشبان أمام الدور، وداخلها ترقص الفتيات والكل تشمله الفرحة فإنهم جميعا سوف يرفلون فى النعيم فقد فتحت أبواب الدوار لكل من شاء.
فى الليلة الثالثة للاحتفال اجتمعت النسوة حول فاطمة التى بدت مذهولة مما يفعلنه بها وبملابسها، يجهزونها للزفاف وتوارى بعيدا طيف سليم الفقير، فقد أحاطوا معصمها بالأساور وجيدها بالعقد الذهبى، بينما وضعوا فى قدميها الخلخال الذى طالما تمنت أن يكون من الفضة ولكنه الآن من الذهب الخالص، فكانت فرحتها أعرض من ابتسامتها كثيرا. وأخذوها إلى دار جديدة لمسعود تبدأ حياتها هناك، تحيط بها العاملات والخادمات وأهل القرية فى زفاف رائع لم يكن فى الرامات مثله أبدا.

مع خيوط الفجر الأولى ودع سليم إخوته وأمه تشيعه بالدموع والدعوات بينما النعاس يداعب عيون الصغار. وإنطلق يحمل فى يده حقيبة صغيرة بها بعض الملابس، وفى جيبه قليل من المال يتوقع أن يكفيه حتى يجد عملا مناسبا فى المدينه، يحسب أن العمل والأيام ستنسيه ما كان من أمر فاطمه.
كان لابد لسليم أن يجد فى مدينة شيروت مكانا يستقر فيه، وأجهد ذاكرته يبحث عن أحد ابناء قريته سافر إلى المدينه من سنوات. وكأنما يبحث عن المستحيل لأنه وجد بالمدينة أضعاف ما كان يتصور من البشر والبنايات، وأيقن أن مايبحث عنه وهم كبير، وقرر أن يدع ذلك الأمر جانبا حتى يستقر فى مكان أولا. فكان يبقى كثيرا إلى جوار المحطة فلم يبتعد كثيرا عنها يأمل أن يقابل أحد أبناء قريته قادما إلى المدينة أو مسافرا منها، فى الوقت الذى يبحث فيه عن عمل. وهكذا اشتغل حمالا على رصيف القطار، وتعرف على شلبى يقاسمه الهموم والطعام والرزق، فصارا أصدقاء بسرعة.

تمر الأيام لتصبح أسابيعا وشهورا يأمل فيها سليم أن يعثر على عمل يرتاح فيه فيهدأ صابرا على ما يلاقيه من التعب والرزق المحدود، حتى كان يوما قابل فيه واحدا من أبناء قريته يدرس بالمدينة فكان له طوق النجاة عندما دله عن مكان سكن بعض الأقارب والمعارف. دار سليم يبحث بينهم عما يروم، ولكنه وجد الجميع منشغلين بأمور حياتهم يستقبلونه كضيف عابر، وربما قدموا له بعض الطعام أو دلوه على آخرين يسألهم.
كان سر سليم يجثم على قلبه لا يجد له متنفسا أبدا حتى قرر ذات ليلة شتاء باردة أن يحكى عما يعانيه لصديق البؤس الذى قال أعرف أنك تعانى هما كبيرا. وشجعه شلبى أن يتحدث وأنصت إليه مخلصا
قال سليم – أحمل كلاما كثيرا وحديثا يقصر الليل عنه ولايحمله إلا من كان قويا صبورا. القلق يحملنى كل ليلة إلى وديان بعيدة أطوف فيها أبحث عن راحتى ومستقبلى. لقد تركت كل ماورائى من أجل فاطمة، فهى أول حب فى حياتى، جميلة كالقمر ليلة التمام، رقيقة كنسمة صيف فى ليلة هانئة. كانت تحبنى وتعاهدنا على الزواج وأهلنا وافقوا فرحين، وأبوها عمى وأمها قريبة لأمى أيضا، فكان السرور والبهجة يغطيان كل ما حولنا. كنا ننوى أن نعقد قراننا فى نهاية الصيف عندما نجمع القطن ونبيعه لنشترى الشبكة والجهاز. إلا أن القدر وضع العقبة فى طريقنا عندما ظهر شيخ تجار البلدة يطلبها لنفسه وهو متزوج من ثلاث نساء فى هذا الوقت. مثل هذا الرجل لايترك الناس يعيشون فى سلام. لديه كل الأشياء والأموال. إلا أن ماعند الآخرين ينقصه، فطمع فى فاطمة أجمل بنات القرية، يظن أنها ستهب له الولد الذى يرثه رغم أنه لم ينجب من كل زوجاته.
لم أطق أن أنتظر حتى أرى الرجل يأخذ حبيبتى أمام عينى فى حضور كل أهلى وأقاربى، وأهل البلد يحتفلون بفرحه ومأساتى. ساعتها قد أجد بعضهم يواسينى أو ربما يبكى لحالى. عزمت وتوكلت وسافرت إلى هنا ربما أنسى.
قال شلبى: لو حكيت لى ما قلته قبل ذلك فربما كنت أستطيع المساعدة، فإن عمى حسين يعيش على أطراف شيروت وقد علمته الحياة ما نعجز أنا وأنت على فهمه. إذا أردت نزوره ونحكى له ما كان، ربما نجد عنده الدواء.
قال: هيا بنا إليه الليلة.

***

قال العم حسين – أتيت باكيا تبحث عمن يمسح لك الدموع. سوف تتفوق على غريمك. وسوف يكون زواجه من محبوبتك نحسا عليه وأدع الله معى أن يرزقه بالولد فإنها مشيئة الله أن يكون له ابن.

قال سليم – كذلك سأدعو الله أن البركة التى يطلبها من الله تتحول عليه لتصبح لعنته إلى أن يموت. شلبى قال آمين.

قال العم حسين - دعك من كل ذلك، فإن فى الحركة والعمل عزاء لك، ويوما ستكون أعظم من أحزانك. سأرسلك إلى عالم يدلك على الطريق. ستسافر إليه ثلاثة أيام حتى تصل مدينة كفرون. وعندئذ سيستريح قلبك فستجد عنده العمل والعزاء. إنه الشيخ واصل. وأدخل يده فى الدولاب وأخرج إليه تميمة وقال أعطها له فسيعرف عندما يراها أنى قد أرسلتك إليه، وهذه التميمة سوف تجلب لك الحظ فى الطريق. إنقل إليه تحياتى، وبلغه أخبارى، وأنى مازلت حيا أطلب أن يسامحنى عن أخطائى التى كانت فى حقه، فإذا رضى فإنه سوف يفيدك.

إستلم سليم طريقه مسافرا إلى الشيخ واصل، يكابد متاعب الطريق والناس الذين لايجيبون سؤال الغريب والمحتاج، حتى نفذت نقوده وحل عليه التعب، وبدا كمتسول يطلب الصدقة، واستمر ذلك أسبوعا كاملا.
عندما انتصف النهار كانت الرحلة قد انتهت أمام بيت الشيخ واصل الذى قدم الماء والطعام لسليم وترك له حجرة ينام فيها، وقال أنه عندما يستريح سوف يسمع كل حكاياته، وأنه يستطيع أن يتجول فى البيت كما يشاء فإنه لايسكن معه أحد.
وضع سليم يده فى جيبه وأخرج تميمة العم حسين، وقدمها للشيخ واصل الذى راح يدقق فيها ويسأل عن كل أحواله حتى وثق فى سليم وإطمأن.
قال الشيخ واصل

- لابد أن لك عنده مكانة كبيرة؟
- بل أحمل هما أكبر منى.
- إذا فقد خانتك إمراتك.!!
- نعم.. وهذا يطول شرحه.
- لا.. يجب أن تنسى كل ذلك.سنتحدث عنه قليلا، ثم ننساه، أليس ذلك أفضل؟
- نعم.. ولكنى دائما أفكر فى الإنتقام.
- دعنا نسمع أولا ما كان.
- إذا عندما قرر مسعود الإنجاب، إختار فتاتك أنت، لتأتى له بالولد ولم يمانعه أحد فى القرية، ولا حتى أهلك.
- نعم. وليس لدى إلا حلم الإنتقام وأدعو عليه كل ليله بالشر المستطير وطلبت من الله أن يجعل ولده نقمة عليه حتى يتعذب ويطلب الموت.

- الأفضل أن تصبر وتترك الله يقتص لك من عدوك، لأنك تطلب الشر، ولايليق بنا ذلك. دع الله يحكم بينكم ويجازى.

***

عاشت فاطمة فى بيت مسعود تشعر بالسعادة والغنى. حولها المتاع والرياش والخدم، تشير فتلبى وتجاب طلبتها. شهور ثلاثة مضت منذ زفافها، بعدها تأكدت بالفعل هى وأمها أن الجنين قد استقر فى بطنها، وفى فرحة كبيرة أعلنت الخبر لمسعود الذى قفز فى الهواء يصرخ أنه سيصبح أبا بعد شهور قليلة، فإن ذلك أمله من سنوات بعيدة إبيض فيها شعره، وسقطت بعض أسنانه، وكل بصرة قليلا، وإضطر أن يتكىء على عصاه، وأحس أن الله قد رضى عنه، وجلس وسط الجميع يعد الأيام ويحلم بصوت واضح أنه يتمنى أن يرزقه الله الولد ليرث الأراضى والمبانى والتجارة والأموال التى بذل عمره يجمعها، وأقام فى دواره إحتفالا متصلا ليله بعد الأخرى، يغنى فيها الصبايا والشباب ويرقصون، ويقدم لهم الطعام والحلوى احتفالا، فشاركته القريه فرحته وأصبحت البهجة تظلهم جميعا، يعدون معه الأيام إنتظارا للمولود الجديد، وتوالى وصول أقرباؤه والأصدقاء من القرى المجاورة يهنئونه حتى كاد الرجل يجن من الفرحة. وإستمر الإحتفال بالمولود المنتظر طوال فترة الحمل حتى كاد الرجل يجن من الإنتظار.

ظهرت علامات الولادة القريبة على فاطمة، وإشتد الألم عليها، فكانت تصرخ، وأمها وخالتها وجدتها والداية يحطن بها ويمسكن يديها يشجعونها لتتحمل فقد مضت الشهور كلها بسلام، وكان كأنما مسعود هو الذى يلد فكان يتألم ويبكى. وحانت اللحظة التى تنتظرها القرية كلها وهو أولهم وجلس فى الدوار يرسل فتى كل دقيقة إلى داخل المنزل فيعود بلا خبر، حتى أتته جدة فاطمة تهرول فى سنواتها الكثيرة، ثم رفعت يدها ووضعتها تحت أنفها ثم أطلقت زغرودة عجوز وصاحت فى سعادة أن المولود صبى.. فقفز إلى أعلى صائحا من الفرحة لايكاد يهدأ أو يكف عن الضحك والإبتسام، فقد أصبح مثل كل البشر أبا لطفل سيصير رجلا ويرث أمواله وحدائقه والبيوت.

سبعة أيام بلياليها أقيمت فيها الزينات والولائم، تسهر القرية تغنى وترقص، وكلهم ينالون من مسعود الهدايا يوزعها عليهم لفرحته غير المحدودة، واستمرت الإحتفالات حتى يوم السبوع فحضر حلاق القرية وختن الطفل فى إحتفال آخر، ونال هو الآخر هدية ماليه كبيرة من مسعود، وربما لم يحصل عليها من قبل.

انقلب بيت مسعود، فكل شىء فيه يرتبونه للمولود، وخصصوا له غرفة وأعدوا لوازمها، والملابس والأدوات واجتمعوا يبحثون عن اسم له، وصارت الليالى زاهرة مضيئة

تملأها البسمات والزغاريد، ومدت موائد الطعام يأكل منها من يشاء. فى اليوم السابع دخل الدوار حلاق القرية تحيط به النسوة فرحات ودقت الطبول والدفوف إحتفالا بختان ابن مسعود. ينتظرون أن يسميه الاب ثم يغدق عليهم الهبات ويتنازل عن بعض ديونهم لديه. أما الرجال فقد جلسوا داخل الدوار وقد أعدوا وسطهم مكانا يمارس فيه الحلاق مهمته، يتضاحكون بينما حمل مسعود الطفل إليهم قائلا الليلة طهور ابنى، وتلقفه الرجل بخفه يعلم أنه سيحصل على أجر كبير للغاية هذه الليلة. وانطلقت من داخل الدار الزغاريد، وخارجها أطلق الرجال الأعيرة النارية ابتهاجا. كبر ناجى فى هذا الجو الملىء بالحب والمال، يرى أباه عظيما يتحكم فى البشر حوله. وعندما دخل الكتاب والمدرسه الإبتدائية كان رئيسا لمجموعته يتقمص دور أبيه وسطهم، ولكن لم يكن قاسيا فأحبه الأولاد.

* * *

كل يوم كان يمر على سليم يزيده قسوة وخشونة. يعمل لدى الآخرين بقوت يومه ويكابد المشاق وغدر الزمان. يسأل نفسه عن سفره وتردده بين الناس وكلهم يحذرونه من الإنتقام حتى لم يعد لكلامهم معنى لديه أبدا. وكلما استقر فى قرية، يرحل إلى غيرها قلقا متوترا غير قادر على العودة إلى الرامات فلن يتحمل العيش هناك، ولن يجد عملا فالقرية مليئة بالشباب لايجدون مايفعلونه سوى الحديث وتدخين الحشيش فى المساء، يحكون عن بطولات لم تكن، وخرافات لايصدقها أحد، ولكنهم يتكلمون قتلا للوقت ومزاحا.
لقد كتب على نفسه الغربة، ومضت ست سنوات لم يحقق فيها شيئا، وقرر الرحيل مرة أخرى لعله يجد السلوى والعوض.

ظل سليم سائرا على قدميه طريقا طويلا ينوى الوصول إلى مدينة بختاتا، وجلس على حافة النهر ثم خلع ملابسه وقرر أن يغتسل فقد مضى وقت طويل لم يبلل جسده بالماء. ومضى يسبح بعض الوقت ثم خرج وإرتدى ملابسه ليستعد لمواصله الطريق فلقى رجلين يتقدمان إليه والشر باد فى أعينهما. وبسرعة إمتدت أيديهم إلى متاعه، ثم أمراه أن يخلع ملابسه وأخذا كل مالديه من ملابس وطعام، ويحاول عبثا أن يدافع عن نفسه، ومضيا عنه بسرعة يندب حظه العاثر فلم يتركا سوى القليل من الملابس التى تستره. سار سليم حتى وصل إلى أطراف قرية تسمى الجساسة، وجلس إلى جوار شجرة محتارا كيف ستمضى به الأيام. واكتشفه بعض المزارعين فأتوا ببعض الملابس والطعام وتحلقوا حوله يسمعون قصته الغريبة، وعطف عليه واحد منهم فإستضافه على أن يعمل فى حقله ليكتسب بعض المال ويشترى مايحتاج إليه فى سفره الذى سيطول ومضت الأيام. وسليم يخرج كل يوم إلى الحقل يساعد صاحبه حتى كان يوما قال له أنه ينوى الذهاب إلى السوق ليشترى بعض الحبوب ويجب عليه أن يذهب معه ليعاونه.

إشتد التعب بسليم وإستإذا صديقه أن يرتاح قليلا فى ظل شجرة مجاوره، فغفا قليلا، ثم استيقظ على صياح الناس يطاردون لصا فهب واقفا يرجو أن يساعدهم، إلا أن أحدهم أمسك به وقال هاهو اللص لقد قبضت عليه.
اجتمع الناس على سليم، وكل منهم يناوله الضرب بالعصى أو بأيديهم ويجذبونه من ملابسه الرثة حتى تمزقت بينهم يظهر لحمه من خلالها، فدمعت عيناه من الهوان الذى يلاقيه، يقسم أنه غريب أتى للسوق يساعد فلاحا من القرية القريبة ولكن لم يجد من يصدقه. والكل يقول أنه كاذب، وربطوا يديه خلف ظهره يسوقونه إلى نقطة الشرطة، وظلت أموره تسوء فى السجن والمحاكمة، ولم يصدق القاضى ما حكى سليم، لأنه لايستطيع إثبات شىء فحكم عليه بالحبس شهور ثلاث.
سليم قسا قلبه فى السجن. ينظر للناس كلهم نظرة واحدة، يجدهم جلادين ظالمين لايحسون ألم الفقير. وكلما أحس الظلم بعد فكره عن العودة إلى الرامات وعزم على البقاء خارجها حتى يكون غنيا بما يكفى أو يجد فرصة للانتقام.

ضاقت الدنيا فى عينيى سليم. يسير لاينوى على شىء إلا الحصول على طعام ومكان يأويه، حتى اختفت الحقول من أمامه، يمضى على الطريق المتجه غربا إلى الصحراء يأمل أن يجد الراحة عندما لايكون الناس حوله. قبل أن تغيب الشمس وجد كوخا جوار الطريق، فطرق الباب يسأل عن الطعام. سأله صاحب الكوخ عما أتى به، وقدم له الماء والطعام وسليم يجد راحة أن يحكى ألمه الذى يقاسيه منذ أن ترك الرامات.

صاحب الكوخ قال: إن الصحراء مليئة بالوحوش والزواحف وخطرها يفوق ظلم الإنسان، فإذا عزم على اقتحام الصحراء، فلابد أن يتجهز لذلك ويحتاط، فإن فى عبورها مشقه كبيرة. فإذا سرت أربعة أيام فى إتجاه الغرب وعبرت أربعة وديان، فستصل إلى واحة النخيل. هناك الساحر ربما يدلك على ماتريد.
سليم قال: إذا لم يبق أمامى إلا أن أصل للساحر وأرجوه أن يستخدم قدرته ليريحنى من العذاب. إن عناء مسيرة أربعة أيام لايقاس بجوار الحزن الذى أصادقه كل يوم طالما سأجد ماأروم، وشكر صاحب الكوخ وإستإذاه أن يبيت الليلة عنده ثم ينطلق فى الصباح.

سليم سار يجد السير يحلم بالإنتقام والغنى، فإن ذلك مايعيش من أجله الآن. المال سيجعله سيد القرية، فيستطيع الانتقام، ولابد أن الساحر يملك الأدوات التى تمكنه من ذلك. وكلما قطع واديا تزداد أمله وفرصته أن يصل. إنقضت الأيام قطع فيها أربع وديان ولم تظهر بعد أطراف النخيل، فالصحراء ممتدة واسعة، وقبل أن يفقد الأمل حل به التعب فنام. فى اليوم السادس رأى على البعد بضع نخلات وإلى جوارها خيمة صغيرة تمنى الوصول إليها قبل أن يقتله العطش والتعب.

* * *

قال الساحر- لقد أتيت عبر الطريق الصعب، فقد اتخذت الدرب الآتى من الشرق، وربما لو كنت جئت من الشمال لكانت أقصر.

وألقى البخور فى المجمرة أمامه فتصاعد الدخان بعطر جميل خدر إحساس سليم، وبهره بتمتماته ونظراته عندما كان متجها إلى النار يخاطب الهواء أمامه، ثم سكت فجأة وانعقد جبينه يفكر وقال:

- كان لابد أن تقاسى كثيرا لترتاح بعد ذلك. سوف تكون سيد القرية غنيا. سترى غريمك ينهار ويضعف ثم يضيع محسورا على كل ما كان. هذا انتقام السماء، ثم إنك لن تزوج حبيبتك أبدا، وستراها ضعيفة تماما يقسو عليها أحب الناس ثم يقوى عليها ويضيع غريمك فى لحظة أمام الجميع.
- كيف يامولانا يحدث كل ذلك وأنا فقير ضعيف وحيد أجلس أمامك أنتظر كلمة ولا أملك شيئا؟
- اصبر فرزقك على الله، والأيام تحمل الكثير، وفيها الشر والخير، والكروب والفرج معا
- لم يصلنى بعد غير الشر والكروب والتعب، فقد ضاعت حبيبتى، ودعوت الله أن ينجب منها زوجها ولدا ليحقق مرادى، فيكون شره عليه عظيما، ويغرقة فى الحسرة والندم.
- سأعطيك حجابا يحميك فى الطريق من الأعداء، ويبعد عنك شر غريمك. لكن لابد أن تحصل على صمغ الكافور وتأتينى به فأصنع منه شيئا تنال به الإنتقام الذى حلمت به.
- غريمى تزوج محبوبتى. لأنه لم ينجب من زوجاته السابقات، وتزوج فاطمة التى أحبها جدا لينجب منها الولد، فإنها أمنيته التى يعيش لها، فإستولى على آمالى وحياتى كلها.
  تمنيت له الموت، أو يحول الله كل ماحوله شرا يحيط به ويبلغه الندم أنه طلب الولد من محبوبتى أنا دون خلق الله جميعا.
- سأساعدك ولو أنك تطلب الشر. والثمن مصاعب كثيرة تلاقيها، الآن قطعت نصف الطريق إلى مرادك. سوف تسير فى هذه الصحراء غربا حتى يحيط بك الموت جوعا وعطشا. قد تصبح طعاما لحيوانات الصحراء، فيجب أن تكون شجاعا صبورا تتحمل كل الصعاب حتى تنال صمغ الكافور، أو ربما تفكر أن تعود إلى بلدك بدونه وترضى بما حدث.

قال سليم - سأتحمل كل ما ألقاه، أفضل أن أموت طعاما للسباع على أن أعود فأموت كمدا فى بيتى لأنى سأحس الظلم كل طلعة نهار.

قال الساحر- يومين تستريح فيهما وتعد الزاد والماء ثم تبدأ رحلتك.

* * *

مرت أيام الراحة وتجهز سليم بالطعام والشراب، حملها مع بعض المتاع ووقف أمام الساحر يعيد علية وصف الطريق الذى سيسلكه ويحذره مشاق الرحلة.

قال سليم– سأعود اليك بالصمغ. أعدك أنى سأعود، وأشكر لك فضلك وصنيعك، فلم أقابل أحدا فى الدنيا ساعدنى كما تفعل.

وسار أياما كثيرة متوجها نحو الغرب، يأمل أن يرى اللون الأخضر يقطع مرأى الصحراء القاحلة. يقاسى الخوف ليلا من الزواحف والوحوش. يزيد عليه العناء برد الصحراء ليلا، والشمس تكاد تحرق رأسه نهارا، والماء تناقص حتى كاد ينفد، ولم يرى شيئا بعد. وفى اليوم السابع لمح طائرا يحوم على البعد وخمن أنه ربما كان صقرا أو يمامة وهذه بشرى طيبة أن هناك حياة قريبة، وفى نهاية اليوم لاحت على البعد واحة صغيرة، حث السير إليها رغم تعبه يروم الماء قبل أن يهلك عطشا.

لم يصدق سليم أنه وصل إلى الواحة بالفعل، وأنه واقف على حافة النبع والماء فى متناوله، فخلع ملابسه كلها ونزل إلى الماء البارد يشرب ويغتسل وكان يغنى فرحا رغم الإجهاد الذى يعانيه، ثم إرتدى ملابسه يفكر فى الطعام وكيف سيقضى ليلته، وسقطت جفونه لينام بعمق.

نور الفجر أيقظ سليم الذى وجد نفسه نشيطا وقد راح التعب، وأحس بالنشوة والجوع، ورفع رأسه يراقب الشجر فلمعت عيناه غير مصدق أنه وصل الواحة فعلا، وراح يفتش عن الصمغ بين الفروع ولكنه لم يجد شيئا. وتملكه الشعور بخيبة الأمل بعد أن فحص الأشجار حوله، وجلس يكاد يبكى من الحسرة. إذا فليست هذه هى واحة الكافور. وقرر أن يواصل السير ليلا حتى يتجنب حر النهار والخوف الذى يتملكه عندما يحل عليه الليل وتركبه هواجس العفاريت والوحوش والزواحف، ثم يستريح نهارا. أخذ سليم ينظر حوله ليحدد اتجاه الغرب، فرأى عند الأفق البعيد قمه جبل صوب اتجاهه المتوقع، فجعلها هدفا، وجمع أشياءه ومضى فالطريق لايزال طويلا.

سار أياما أخرى لايعرف عددها، وحتى نفد منه الماء والطعام ثانية، فكان يأكل نباتات الصحراء، وعطش حتى تشقق جلده، وصار متعبا يجر ساقية يتمنى الموت، فكانت قمة الجبل تلوح كما لو كانت تبتعد عندما يسير فى إتجاهها.

قبل الجبل كان الوادى يمتد مختفيا تحت الافق. ومن رحمه الله أن وصل إلى قمه التبة حيث فوجئ بالوادى عميقا يتعرج بين الكثبان والهضاب، مثمرا عن واحة صغيرة من أربع شجيرات حول نبع للماء. وقطع المسافة حتى النبع كما لوكان صبيا صغيرا يجرى اشتياقا ثم رمى بنفسه يعب من الماء حتى ثقلت بطنه وأحس بالدوار ثم غاب عن الوعى.

عندما أفاق سليم كانت حوله ناقة، وزوجا من الماعز تجتران بعض الأعشاب بعدما شربت من النبع مثلما فعل. وكأنه وجد كنزا، فاستطاع أن يستأنس الناقة، وأن يشوى الشاة

الصغيرة، فأكل حتى شبع ونشر لحمها الباقى فى الشمس ليتقدد فيمكنه الإحتفاظ به طعاما لرحلة العودة التى توسم أنها ستكون سهلة، وتمدد فى الظل تحت الشجرة.

ومض ضوء الشمس منعكسا على فرع للشجرة كما لو كان معدنا أو زجاجا فأثار ذلك سليم وقام يمد يده ليرى ذلك الشىء، فوجد بللورة من الصمغ الذى جف، وأدار بصره وقال لنفسه: ربما كان هذا ما أبحث عنه وصار يجمع كل ما يراه من بلورات الصمغ الجافة ثم خطر له أن يستخدم السكين ليحصل عليها كلها.

عندما شق السكين فرع الشجرة سالت العصارة وفاح عطر جميل أدار رأسه فوضع منه قليلا بين أصابعه وشمها، ثم أخذ بعض الأوراق وفركها ففاحت رائحة قوية أسكرته فقد كانت رائحة الكافور القوية، ووضع بلورات الصمغ فى علبة كان أعدها له الساحر، وملأها حتى حافتها سعيدا بأنه حصل على المراد.

كان لابد أن تستمر معاناه سليم بعد أن حصل على صمغ الكافور، وكمية رائعة من اللحم وشرب من الماء الكثير وملأ أدواته، وقد حصل على ناقه تحمل عنه كل ذلك. فبينما هو نائم لمست يده شيئا ناعما يلتف عليها ففتح عينيه ليجد ثعبانا ضخما جسمه الخوف، فرآه وحشا كبيرا فإنتفض بسرعة وهوى عليه بحجر ليسحق رأسه، ولم يصدق بالنجاة، ووجد أن التعب والعطش والجوع أخف وقعا من الرعب الذى تملكه، ولكن لم يلبث أن أطلق ضحكة كبيرة فإن الثعبان الذى قتله لم يزد طوله عن نصف المتر فقط.

ثارت رياح الصحراء تقذف بالرمال، وثقل السحاب فكان رماديا، ثم أطلق حمولته مطرا كثيفا كانت تنتظره الصحراء الجافة، ولكن المطر لم يكن فى حسبان سليم فإضطر أن يبقى يوما آخر فى واحة الكافور حتى يجف المتاع.

الإتجاه شرقا هو الهدف، والشمس عندما تشرق سيجعلها فى مواجهته ويسير ليصل إلى الساحر ويسلمه علبة الصمغ النادر.

قطع سليم رحلته فى عشرين يوما، أعانته الناقة على السير خلالها، تحمله طوال النهار ويسير أمامها بعض الليل، ثم ينام عند مجارى السيول حيث بعض العشب ترعى فيه الناقة، ولم يكن يزعجه إلا تناقص الماء، وخاف أن ينفد قبل أن يصل إلى أول قرية.

يبدو أن سليم كان متفائلا أنه سيعود ومعه الصمغ فى أيام قليلة، ولكنه إنحرف أثناء سيره مرات حتى ضل الطريق وكاد يهلك، لولا الطيور التى تحوم فوق البئر أو الواحة الصغيرة يتقافز بينها. وكما السنوات تمضى متثاقلة، كانت أيامه ولياليه تمر عليه وحيدا ينطق ببعض الكلمات لنفسه حتى لاينسى الكلام، وقبل أن ينتهى الزاد والماء كانت تلوح فى الأفق أطراف الشجر العالية قرب القرية الصغيرة، فبلغها بعد أن غابت الشمس بساعات.

عندما وصل سليم كانت كل قواه قد راحت كما الطعام والماء، وإستضافه أحد الفلاحين بعد أن أثرت فيه هيئته المزرية، فقد عفرت الرمال رأسه ووجهه وملابسه، فبدت عليه آثار البؤس والإجهاد.

سليم نام كما هو فى مكانه حتى طلع عليه النهار، فإستإذا مضيفة أن ينصرف لحاله فهو متعجل يريد أن ينطلق. سأله الفلاح عن وجهته فقال سليم سأروح إلى كفرون لأقابل الرجل الذى سيجعل من حياتى هناء متصلا. فتح الفلاح فمه غير مصدق أن هناك رجلا يستطيع منح السعادة فى هذا العالم، فتركة يمضى فهو على كل حال عابر سبيل وقد أدى الواجب نحوه تماما.

* * *

أسعد الحظ سليم فوجد طريقة إلى المدينة، وسأل عن بيت الشيخ واصل فدلوه عليه، ومضى مسرعا لايلوى فى إتجاه الجانب البعيد من القرية حتى وصل. كانت الشمس تنتصف السماء، وظله تحت قدميه، والعرق يغمره والتعب يكاد يقتله، ولكنه استجمع قواه ونادى وهو يطرق الباب ياشيخ واصل. الباب كان مواربا وانفتح تحت طرقات سليم الملهوف الذى تسمع الصوت الخافت يسأل عن الطارق فدخل ينادى.

قال الشيخ – سليم من؟

- أنا سليم ألا تذكرنى يا شيخ واصل ؟
جئت إليك من أعوام كثيرة، فأرسلتنى لأحصل على صمغ الكافور.
- أنت كاذب، ربما سمعت عن ذلك، فحضرت تطلب شيئا.
سليم الذى حضر إلى شاب وسيم، أما أنت فمنظرك قبيح وجلدك أسود قذر، وشعرك أشعث أغبر، وليس لك أسنان، كأنك لص مطارد.
- لقد غير الجوع ومشقة السفر ملامحى، وبشرتى غيرتها الشمس وآثار جلدهم لى فى السوق عندما اتهمونى بأنى سارق، ولم أكن كذلك أبدا. وإذاى قطعها لصوص الطريق عندما لم يجدوا معى شيئا يسرقونه، وأسنانى الأمامية إنكسرت لما سقطت على وجهى فوق حجر فى الصحراء، فقد كنت جائعا بردانا لاأستطيع أن أرى مأأمامى. هكذا كانت كل الدنيا ضدى،الحاج كريم، ومسعود، وفاطمة. حكيت لك عليهم جميعا عندما جئت إليك.
أنا سليم يا شيخ واصل، جئتك من قرية الرامات. أرسلنى إليك العم حسين، الذى هو عم شلبى صديقى، أرجوك أن تسمعنى لقد سافرت كثيرا وتغربت وقاسيت الليل والبرد والوحدة والشقاء سنوات، لأحصل على صمغ الكافور فأرسلتنى للواحة الشرقية.
تذكرت الآن أن العم حسين أعطانى تميمة حجابا من الأبنوس أعجبك ووضعته فى هذا الصندوق.

- نعم الآن تذكرتك. أنت سليم. الحمدلله على سلامتك. إحك لى ماكان وسوف أسمعك وسأساعدك كما وعدتك، ولكن دع ذلك للمساء ريثما تستريح، فسوف يحضر ابن أخى ومعه طعام بعد قليل. أرى أنك تحتاج إلى ماء وطعام وملابس ونوم ثم نتحدث.

حل الليل وسليم لم يزل نائما حتى أيقظة الشيخ واصل ينادى عليه أن الطعام جاهز. انطلق سليم يحكى ما كان من أمره منذ ترك الشيخ يبحث عن صمغ الكافور، حى عاد ومعه علبة كاملة منه ملأها من هناك.

قال الشيخ واصل

- وبعد كل هذه السنوات والمشقة، ألم يلن قلبك وتغفر لصاحبك زلته.

قال سليم- لقد كابدت الأهوال ولم يكن يسلينى ألا الشوق للإنتقام من مسعود الذى استولى على حياتى. إن الرجل الذى يتحمل الألم سنوات هل يرق قلبه؟ سوف أثأر لجرح قلبى، وأثأر ثانية للشقاء الذى كابدته، ومرة ثالثة للعناء الذى سببه لى ورابعة لأن السنوات راحت منى بسببه. أنا لم أبدأ بالشر والعدوان.
أريد يا شيخ واصل العودة إلى الرامات.

قال الشيخ واصل

- سأساعدك، ولكن أنصحك أن تغفر لعدوك، ثم إنى أنبهك ألا تلجا للسحر. إن ابن أخى سيحضر فى الصباح وسوف أرسله معك فيريك طريق العودة، فإن شئت عد إلى بلدك وإنس ماكان فذلك أفضل.

فى الصباح سار سليم مع الشاب الذى أرسله الشيخ واصل إلى الشمال حيث واحة النخيل. وعند أطرافها تركة الشاب فمضى وحيدا فى رحلة جديدة إلى شيروت استغرقت شهورا.

***

لم يستطع أحد من الغلمان أن يتعرف على سليم، فأخذوه للداخل، وجلس أمام الساحر يتفرس فى وجهه محاولا التعرف عليه وسأله من أنت؟ لقد نسيتك بالفعل.

- سيدى هل نسيتنى؟ أنا سليم أتيتك من الرامات وطلبت منى صمغ الكافور.
- لم أعرفك من الوهلة الاولى. ربما تكون مريضا.
- لا.. أبدا، حضرت إليك من سنوات، وكانت هيئتى أحسن، ولكن الزمن غدر بى كثيرا حتى حصلت على الصمغ، وها أنا أمامك أحكى عما كان، ولولا أن الله من علىَ بطول العمر لمت من زمن طويل. فلم توجد متاعب أو مصاعب إلا

وصادفتنى. والآن اليك العلبة التى كلفتنى سنوات من الذل والقهر تحوى الصمغ العجيب.

مد الساحر يده فى الصندوق إلى جواره، ثم قال لسليم

– لقد مرت أيام ثلاثة منذ حضرت وقد استراح جسمك من التعب. أريد أن يستريح قلبك وتنسى ما كان من سوء الحظ الذى صادفك. أرجو أن تنس محبوبتك وغريمك والمشاق التى صادفتها.

قال سليم – كيف وأنا أعيش لأنتقم ؟

قال الساحر – أريد أن تعرف قبل أن تعود. أن محبوبتك قد أنجبت غلاما، وقد صار الآن فتى عمره ثمانية عشر عاما. والآن إليك هذا الدواء. عندما تعود إنتظر أسبوعا كاملا، ثم إذهب إلى ابن محبوبتك وأغسل يديك جيدا ثم بللها من الدواء وإمسح بها على رأسه وبقدر ماتستطيع على جسمه، ثم تقص بعضا من شعره وتخلطة بباقى الدواء وتأخذ ذلك وتدفنه فى قبر جديد، وسوف تجاب كل طلباتك ويتحقق لك الإنتقام.

قال سليم – سأجد الفرصة لألقى الفتى ولكن كيف سأمسح جسده بالدواء ثم أقص من شعره، ربما كان ذلك صعبا.

قال الساحر – الذى ذهب وبحث عن شىء لايعرفه، بل يشك فى وجوده، كيف يجد ذلك صعبا؟
لكى يسهل عليك ذلك إليك هذه التميمة علقها فى رقبتك وتحرز بها فلن يحول بينك وبين مرادك أى شىء بالدنيا.

قال سليم – أكاد لاأصدق نفسى أن كل ذلك قارب أن يحدث، ولاأملك ما أكافئك به على ماقدمت لى.

قال الساحر – عندما ستعود من المؤكد أنك ستجد شيئا مناسبا ترسله لى، وإلا فإن كل مامعك لن ينفع على الإطلاق ويروح مجهودك هباء.. لاتنس ذلك.

* * *

كان باب البيت مفتوحا وأم سليم واقفة ترقب الطريق وفى يدها عصا قصيرة تهش بها أمامها. إقترب سليم ثم مر بجوارها ودخل إلى البيت فصرخت الأم من هذا الذى يدخل بيتى بلا سلام. إذا لم تخرج فسأصرخ أنك لص تسرق البيت.

- أماه.. أنا لست أبدا كما تقولين أنا سليم.

- ابنى.. ياه.. بعد كل السنوات.. لقد انتظرتك طويلا حتى يأست منك ومن الناس والزمن.

ودخلت فى حضنه تعانقة وتتحسس جسمه النحيل بعد أن كل بصرها تتأكد أنه هو. وصارت تبكى وهى تضحك ثم تمالكت وأطلقت زغرودة عجوز تعلن فرحها.

حضر الجيران على بيت أم سليم يقدمون التهانى ويصافحونه، ويقفون طويلا يتملون فى ملامحة التى تغيرت، وبشرته التى صبغتها الشمس بلون داكن، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى توافدت باقى العائلات ومعهم الطعام والشراب يقدمونه إحتفالا بعودته، وانتشر الخبر فى القرية كلها.

راجح الأخ الأصغر لسليم، كان بالقرية المجاورة عندما وصله الخبر فأسرع بالعودة ليقابلة، ودخل فى أحضانه يبكى قائلا لو لقيتك بالسوق لما عرفتك لقد غيرت السنوات شكلك تماما.

بعد أيام كانا راجح وسليم يتسامران عندما سأله عن أخبار فاطمة.

قال راجح- بعد أن سافرت بشهور قليلة انتشر الخبر فى القرية، ولم تمر فترة كبيرة حتى علمنا أنها حامل، وأقام مسعود احتفالا كبيرا أعلن فيه أنه ينتظر الولد بعد شهور، وأن الله لابد أن يكافئة على طول الانتظار. وولدت فاطمة صبيا جميلا يشبه أمه ثم الحقوة بالمدرسة حتى كبر، وكل أهل القرية يحبونه لخلقه الكريم.

قال سليم – يحبونه لأنه ابن سيدهم مسعود.

– الشاب مؤدب يحترم الكبار ويتصرف بعقل كبير.

– أريد أن أراه.

– هذا سهل تماما.

وبينما كانا جالسين قبل العصر إذا بمجموعة من الشباب سائرين.

فقال راجح – أنظر يا سليم إن ابن فاطمة مع هؤلاء. إنه فى الوسط يرتدى القميص الأخضر

قال سليم – لقد رأيته، إن ملامحه جميلة بالفعل، وجسمه فارع الطول تبدو علية القوة والذكاء.

– مرت سنوات كبر فيها الولد وأصبح فتى يافعا. ناجى.. أمه أسمته هكذا.

* * *

دخل سليم إلى بيته وغسل يديه جيدا وجففهما ووضع قليلا من دواء الساحر عليها ودلكها بخفة، ووضع الزجاجة فى جيبه ثم إنسل خارجا فى الليل يبغى بيت فاطمة. كان الوقت صيفا، واشتدت الحرارة فكان الناس يسهرون ليلا منتظرين نسمة عليلة يستمتعون بها، وتنعقد حلقات السمر حتى بعد منتصف الليل.
لم يكن الأمر صعبا، فعندما دخل سليم بيت فاطمة كان الجميع قد صعدوا إلى سطح المنزل يسمرون هناك، بينما ناجى راقد فى فراشه بعد أن أنهكه اللعب مع الرفاق.
تطلع سليم إليه وهمس لنفسه، ألم يكن من الأولى أن يكون هذا ابنى؟ ومد يده يمسح بها رأس ناجى ويكشف جسده ويدلكه بيديه بعد أن أضاف بعض الدواء مره ثانية، ثم قص خصله من شعره ووضعها فى كيس كان قد أعده منذ الصباح لهذا الغرض.

انتهت مهمة سليم فى بيت فاطمة وإنسحب ليخرج، فرأى باب الغرفة المقابلة مفتوحة، ونظر ليجد محبوبته نائمة فكاد قلبه أن يرقص من الفرح لأنه رأها. وباغتته شهوه الإنتقام فجأة، ووجد نفسه يهتف باسمها فإلتفتت نحوه وهى نائمة تقول ماذا تريد؟
قال سليم – أنا الذى أهنته أمام نفسه والأقارب والناس، ورفضت الزواج بسببك تركت الرامات والناحية كلها لأعيش كالمطرود، فقابلت الأهوال من أجلك، والآن أعود لأنتقم فإن يوم ثأرى قد حان.
لن تعيشى بعد الآن فى أمان، لأن ولدك الذى تمنيته لنفسى سيكون شريرا، بل لعنة، ويجلب لك العار والحزن، ثم يكون سببا فى قتل مسعود أبيه الذى شرد أحلامى ثم استدار خارجا بسرعة.

استيقظت فاطمة فى الصباح حزينة منزعجة تهمس لنفسها.. كان حلما فظيعا. لابد أنه كابوس، لقد سمعت صوت سليم يحدثنى ويتوعدنى. وسارت إلى حجرة ناجى تطمئن عليه فرأته راقدا فى فراشة فهدأت نفسها قليلا، وقالت إن الذى رأيته كان حلما سخيفا، وأسرت ذلك فى نفسها ولم تحك لمسعود شيئا.

كان الغل قد تمكن من سليم، فجلس يخلط الدواء بشعر ناجى الذى أحضره فى المساء، وذاب الشعر فى المحلول السحرى وأحكم قفل الزجاجة جيدا، وخرج وفى يده فأس صغير يبحث عن قبر جديد لينبشه ويدفن الزجاجة فيه. وبعد أن أتم مهمته عاد إلى بيته وقلبه منقبض يلوم نفسه أن إنساق خلف كل ذلك. ولم ير أن السنوات التى راحت كان يمكن أن يسعد فيها بشكل ما.

إستيقظ ناجى وإغتسل وإفطر ثم إرتدى ملابسه، وفى طريقه إلى الباب لمح فى حجرة أبيه محفظة فوق المنضدة فدخل وأخذ منها عشرين جنيها ومضى خارجا.

لما عاد مسعود وجد أن أحدا قد عبث بمحفظته، فعد النقود ووجد أنه ينقصها عشرون جنيها، فنادى فاطمة والخادمات، وكلهن أنكرن فعل ذلك. واحده قالت لقد رأيت ناجى خارجا من الحجرة منذ قليل.

قال مسعود– ابنى لم يكن لصا أبدا. هذا تدبير النساء كى يوقعن بينى وبينه فكلهن يغرن من حبى له. عندما يعود ناجى سيخبرنى بما كان فهو دائما صادق.

لكنه لم ينتظر حتى عودته وأرسل أحد غلمانه إليه فى عمله ليعود به فلم يجده، وعاد أصفر اللون يخبر مسعود عن غيابه عن العمل هذا اليوم.

دخل ناجى فى موعده إلى المنزل فوجد أباه وأمه جالسان ينتظرانه، وسأله أبوه على الفور كيف كان يومك يا ناجى؟

لم يتلجلج ناجى وقال فى ثقة

– لقد ذهبت إلى عملى فى الصباح.

أطرق مسعود فهو يعرف أنه لايكذب أبدا، وأن هذه هى المرة الأولى التى يفعل فيها ذلك. ولعبت الهواجس فى عقله فبادره بسؤال ثان لم يكن يتوقعه.

– لماذا دخلت حجرتى فى الصباح؟

– وأنت لماذا تسألنى عن ذلك؟

– لقد ضاعت نقود فى الصباح.

– وهل أنا حارس على غرفتك؟

قال مسعود ماذا أصاب الولد ؟ كيف يتغير هكذا ؟ ونظر إلى فاطمة متعجبا وتمالك نفسه فلم يكن ليضرب ابنه الوحيد أبدا.

ارتعشت فاطمة فجأة فقد تذكرت حلم الليلة الماضية. ناجى اليوم سرق وكذب. لكنها لاتصدق مايحدث أمامها، وقامت تعد له طعاما يحبه، ولما جهزته وضعته على المائدة ونادت عليه أن الطعام جاهز.

لم يرد ناجى على نداء أمه بعد أن تكرر مرات، ثم خرج من غرفته يتأفف وكشف عن الطعام.

قال – هذا أكل بارد يصلح للكلب.ورفع المائدة بقدمه فإنقلبت على الأرض بما عليها من أطباق، ومضى خارجا.

قالت فاطمة – قف أريد أن أحدثك. ماذا أصابك اليوم هل جننت؟

قال ناجى – تضايقونى دائما. أبى يسأل، وأنت أيضا، وطعام ردئ، وأناس لايفهمون، وخرج من أمامها بسرعة. ولم يعد ليلتها إلى البيت فتركهم حيارى لايدرون له مقرا.

* * *

كان هذا اليوم هو الفاصل فى حياة ناجى الصغير. بدأ بسرقة النقود والكذب، ثم تطاول على أمه وبات خارج المنزل. أتبع ذلك بعدم الذهاب لعمله ومشاجراته مع الناس فى السوق والشارع، ثم يظهر فى البيت فجأة ليسرق شيئا يبيعه ليأكل.
تعجب الناس مما يحدث لمسعود وابنه، فلم يروا مثل ذلك أبدا وبدأوا ينفضون من حول مسعود وفاطمة بعد أن تملكهما الحزن والضيق، فلم يعودا يعطيان للآخرين شيئا، مكتفين بهمومهم الجديدة التى يزرعها ابنهما كل يوم.
عندما يعود ناجى كان يجد أباه مترصدا إياه ليحبسه فى البيت، ثم يضربه بقسوة، فيبكى ناجى وأبوه وفاطمه أيضا، فيهرب ثانية لأقران السوء فيمضى معهم الأيام والليالى.

مسعود صار حزينا ثائرا يفرغ غضبه فى فاطمة ليلا ونهارا. يتهمها أنها دللت ناجى حتى فسد، وتبكى صامتة. لاتدرى كيف تدافع عن نفسها وولدها. زوجاته الأخريات جلسن شامتات. كل منهن ترمى فاطمة بكلمة توجعها حتى ضاقت الدنيا فى عينيها. إن حلمها قد بدأ يتحول إلى حقيقة. الهاتف قال أنها لن تعيش آمنه بعد الليلة، وأن ابنها سيكون شريرا يجلب الحزن والعار والمشاكل، وقد حدث ذلك فى أيام قليلة لم تتعد الأسبوع، ولم يبق إلا أن يقتل أباه.

نادى مسعود فاطمة وقال

– لقد أصبحت سيد الرامات، والآن كلهم يقولون أن ابنى قد فسد، ولا أدرى كيف أواجههم بعد الآن؟وأنت لاتدرى كيف تقومى الولد بعد فساده، وزوجاتى ينظرن إلينا فرحات بما يحدث لأنهن لم ينجبن حتى الآن. لقد أصبحت مثل فأر المصيدة، ولا أدرى ماذا سيجلب علينا من العار بعد ذلك؟

قالت فاطمة – ليس أمامنا إلا الصبر.

قال مسعود – سأنتظر عودته، ثم أقيده بالسلاسل فى غرفته، ولن أتركه إلاعندما يثوب لرشدة ويعى أن مايفعله هو العار تماما.
إنفجرت فاطمه باكية، تندب حظها وأيامها وابنها وزوجها، فتركها مسعود ومضى لحاله.

ناجى مضى يهيم فى القرى المجاورة، يصادق السفلة واللصوص، حتى دخل سوق إحدى البلاد المجاورة حيث جلس إلى أحد البائعين الذى سأله عن وجوده بالسوق.

فقال – أنا فى إجازة من العمل هذه الأيام، وأبحث عن عمل جديد، وربما أقابل بعض الأصدقاء فنشترى أو نبيع شيئا.

قال البائع – أنت كاذب يا ناجى. أنت هنا لأول مرة، وربما أنت هارب من والديك.

بكى ناجى وقال- أبدا. أنا لم أهرب من البيت، لقد تركت عملى، وإذا تركتنى أشتغل عندك وأعطيتنى أجرتى فى المساء فسأشكرلك ذلك، وأدعو الله أن يرزقك كثيرا، فأنت تبيع الطعام الجيد للناس.

امتلأ السوق بالمشترين، وزادت حركة الشراء والبيع، فقد كان العيد بعد يومين والكل يشترى الملابس الجديدة واللعب والحلويات للأولاد.
اقترب رجل يحمل أشياء كثيرة وضعها على الأرض بجوار قدم ناجى ومد يده بالنقود للبائع، ثم وضع حافظة النقود على الأشياء إلى جواره. ولما إلتفت إلى البائع ليأخذ الطعام، غافلة ناجى ومد يده وإلتقط الحافظة ومضى كالقط البرى.
صرخ الرجل وهو يبحث عن نقوده، ينظر فى أمتعته وعلى الأرض، يرجو أن يجد محفظته دون جدوى، وإرتفع صياحه.
قال البائع - ربما الغلام الذى كان كان يجلس هنا هو الذى فعل ذلك.
وترك محله وراح يبحث مع الرجل عن ناجى حتى رآه وسط الناس فأمسكوا به وراحو به إلى شرطة السوق.
قال الضابط -إذا فأنت اللص الذى سرق نقود الرجل.
قال ناجى - أبدا أنا رجل شريف ولا أسرق أحدا.
قال البائع - لقد شككت به منذ حضر، وحكاياته كلها مريبة ولابد أنه اللص.
قال الضابط - إن قلت الصدق سوف أتركك تعود إلى بيتك حالا.
قال ناجى - لست أنا اللص.
قال الضابط - كم كان فى محفظتك أيها الرجل؟
قال الرجل - عشرون جنيها كاملة.
وهنا مد الضابط يده فى جيوب ناجى، فوجد معه ستة عشر جنيها فسأله أين الباقى؟ فبكى ناجى معترفا أنه سرق المحفظة.
أمر الضابط بجلد ناجى خمسة عشر جلدة، وأرسل فى طلب أبيه أن يحضر لإستلامه من نقطة السوق، فحضر مسعود جلد ابنه، وبكى عندما كان يتألم من الضرب، ودفع النقود التى صرفها ناجى إلى الرجل، وإعتذر للجميع، وجعله يسير أمامه إلى البيت ليلاحظه، وحتى لايرى ناجى الدموع فى عينيه.

كانت فاطمة جالسة عندما دخل مسعود خلف ناجى يبدو عليه الذل والحزن والإرهاق، فانقبض قلبها وسارت خلفهما حتى حجرة ناجى.
قال مسعود - سوف أربطه بالسلاسل فى هذا المكان ولن أحرره إلا بعد أن يخرج الشيطان منه، فقد سرق مرتين، وكذب مرات، ولنا على هذا الحال أكثر من شهر ولا أدرى ماالمصيبة القادمة التى سيحملها إلينا.

ابنك يا فاطمة سرق نقودى، ثم سرق نقود الناس فى السوق، ولسانه أصبح أسود اللون من كثرة الكذب، وأنا رأسى مالت حتى كادت تلامس الأرض من الذل الذى ألاقيه من أهل الرامات.

يومين فقط تحمل فيها ناجى أسره، ثم تذلل لأمه أن تفك قيده قبل أن يحضر أبوه فهو يريد أن يقضى حاجته بالحمام، فلم يدخله منذ حضر، ثم بكى فرق قلبها لذلك، وأتت بالمفتاح وفكت قيده.

ناجى قال – الآن لاتبحثوا عنى أبدا، فسوف أترك الرامات والناحية كلها لكم، وسأعيش بعيدا فتستريحون منى وأرتاح أنا قبلكم.

فبكت أمه وتشبثت بملابسه تصرخ فيه أن يبقى، ولكنه دفعها بعيدا بقوة ومضى، فسقطت على الأرض تندب حظها وأيامها وشماتة الناس فيها.

بعد ساعات، حضر مسعود ودخل كعادته مطاطئ الرأس بلون شاحب، ثم جلس وقبل أن يسأل وقعت فاطمة أمامة مغشيا عليها، ولما أفاقت حكت ماكان من أمر ناجى، فلم يتمالك نفسه وبكى هو الأخر من القهر وأصبح يتحدث عن العار والحزن والهم والناس.

* * *

هروب ناجى كان البداية لأن يدخل تجربته الخاصة فى الحياة، فصار ينام فى أى مكان، ويأكل أى شئ، ويتسول من الناس يسألهم الطعام والملابس، وقليل منهم من كان يعطف عليه، وظل هائما إلى أن وقف أمام متجر صغير ليشترى طعاما، وسأل البائع أن يدعه يشتغل لديه مقابل طعام يومه، فوافق الرجل فرحا به، فأبدى مهارة وإخلاصا فى الأيام الأولى، حتى أن البائع إصطحبه إلى بيته وتركه يأكل وسط أولاده وزوجته.

حكى ناجى أنه وحيد فى الدنيا بعد موت أهله فى الوباء، فوثقوا به وتركوه يحرس البيت والدكان، بل ويحمل البضائع إلى الناس ويستلم النقود، فكان يختلس منها بذكاء دون أن يكتشف أمره.

يوما قال ناجى للبائع أن ثمن القمح فى البلدة المجاورة إنخفض كثيرا وارتفع هنا، ويمكننا إذا اشترينا كمية منه فإن المكسب سيكون كبيرا. فكر الرجل فى كلام ناجى، وقال فى الغد سوف أعطيك مالا فتشترى لنا القمح وتشحنه فى المساء.

مضى أسبوع كامل ولم يظهر ناجى بعد أن إستلم النقود حتى أيقن الرجل أن ماله قد ضاع، وأرسل أحد غلمانه يتقصى أثر ناجى فنجح فى العثور على أحد أصحابه الذى دله على مكانه الجديد.

ناجى أحس بالخطر فأشعل النار فى الحجرة التى يقيم بها وجلس يبكى، وعندما حضرت الشرطة، إدعى أن النار قد أتت على كل شئ بما فيه مال البائع الذى استلمه.

القاضى قال – أنت سرقت الرجل الذى ائتمنك على تجارته.

ناجى قال – لقد اشتريت القمح بالفعل، ووجدت مشتريا بسعر كبير ففرحت، وقلت لنفسى سوف نكسب مالا كثيرا فأقدمه لسيدى لأنه أكرمنى، لكن المشترى تأخر حتى الأمس ثم حضر وإستلم البضاعة وأعطانى الثمن ولكن النار أكلت كل ما كان معى.

القاضى قال – إذا أبوك سيدفع ثمن ما راح وأرسل فى استدعاء مسعود من البلدة المجاورة.

للمرة الثانية يجلد ناجى أمام عينى مسعود ويرى أثارالسوط على جلده، ثم يعود به إلى البيت مخذولا كلاهما، بعد أن دفع المبلغ الذى اختلسه من التاجر أيضا. وطوال الليل كان الثلاثة يبكون، مسعود وفاطمة وناجى بينهما، حتى أرهقوا جميعا من الحزن والهم.

قال مسعود– سأعطيك كل ما تطلبه من مال وملابس وأشياء، شرط ألا تعود لهذة الفعله أبدا.

فعاهده ناجى، واستلم مبلغا كبيرا، وملابس جديدة، فابتسمت فاطمة تأمل أن يكون صادقا ويعود لما كان عليه من شهور مضت. لكن ناجى بعد أن نام أبواه أخذ كل شىء وهرب مرة ثانية بعيدا.

فى الصباح اكتشف مسعود فعلة ناجى، فبعث خلفه برجاله يبحثون فى القرى المجاورة فربما وجدوه قبل أن يرتكب جريمة جديدة.

لم يتوقف ناجى أيام ثلاثة عن السفر حتى حط فى بلده اسمها الساجور، كلها أماكن للقمار يتجمع فيها المقامرون ليلا يلعبون ويشربون ويطاردون الغرباء فيأخذون مالهم، ووقع ناجى بينهم فأتوا على ما معه حتى ملابسه الثمينة فأخذوها منه.

لما لم يجد ناجى مالا يشترى به طعاما، بدأ يسرق ممن حوله، كما كان يفعل وتعرف على آخرين يسرقون، وأصبح عضوا فى عصابة لسرقة المارة ليلا حتى قبض عليه ودخل السجن عامين كاملين.

***

جاء أحد التجار اسمه حسان من الساجور ليشترى بضاعة من مسعود، وجلس يتحدث عن اللصوص الذين انتشروا فى البلاد. حكى حسان عن اللصوص الذين قبض عليهم فى الليل يقطعون الطريق على المارة وحكم عليهم القاضى بالسجن وأسهب التاجر فى الوصف، فقد حضر واقعه القبض على اللصوص، ومسعود يستمع ويسأل حتى تأكد أن ابنه قد قبض عليه فقد وصفه حسان بدقة.

قال مسعود – هذا سرى فهل تحفظه على؟

قال حسان – نعم.

فأضاف مسعود – إذا يمكنك عندما تعود إلى الساجور أن تزور ابنى فى السجن، فأنا لا أقدر على ذلك، وربما أموت لو رأيته هكذا، ثم ترسل لى الأخبار، وسأكافئك على صنيعك هذا بسخاء إن شاء الله. تعرف أنى تاجر مثلك وسمعتى هنا هى رأسمالى، وبعد أن هرب ناجى أصبحت فى وضع سيئ بينهم، وحتى زوجتى أصبحت تتجنبنى بعد أن حزنت هى الأخرى.

راح حسان يتلمس أخبار ناجى حتى علم أنه يعمل فى المزرعة فراح إلى هناك وتودد لرئيس السجن أن يشترى بعض المحصول، ثم سأله عن ناجى وأن يسمح له برؤيته فوافق على الفور.

قال حسان – كم بقى لك فى السجن وتنتهى العقوبة.

قال ناجى – سته شهور كاملة وأصبح حرا.

فأرسل حسان إلى مسعود يخبره عن ابنه وموعد الإفراج عنه، وفى الأسبوع التالى راح إلى السجن ليسال عن ناجى فوجد أنه تم الإفراج عنه من يومين وهكذا فقد حسان أثره تماما.

خرج ناجى من السجن مع مجموعة أخرى أفرج عنهم، فصاحبوه وأخذه أحدهم معه إلى بلده بعيدة تسمى الجساسة ودفع له ثمن التذكرة. قال ناجى أنه لم يسمع بهذا البلد أبدا، ولكن زميله الجديد مدبولى طمأنه أنه أن الرزق وفير هناك وسوف يسترد منه ثمن التذكرة أضعافا بشكل آخر.

وكان مدبولى صادقا بالفعل فقد وفر الإقامة والطعام وضمه إلى عصابته القديمة، يسرقون كل ما تقع عيونهم عليه، حتى صار لصا ماهرا يمكنه أن يدرب لصوصا جددا ينضمون إليهم من وقت لآخر، فيجمعون مايسرقون ويذهبون بها إلى الشمال ليبيعونها ويعودون بالمال الوفير يصرفونه على الخمر والنساء والطعام. حتى كان يوما عظيما لهما عندما خرج ناجى ومدبولى فسرقا تاجرا كان يحمل مبلغا كبيرا من المال فأخذاه منه وفرا إلى المروج البعيدة وجهزا لهما كوخا يبيتان فيه حتى لا يجدهما أحد ممن يعرفونهم.

***

ضاق مسعود بحياته ومايحدث فيها متتاليا، والإنهيار الذى أصاب سمعته رغم رواج تجارته ونمو ثروته الكبيرة. كان يجلس حزينا مضطرب الفؤاد لأنه لايعرف مايحمله القدر من أخبار ناجى. يخاف من مقابله الناس يظنهم يتحدثون فيما بينهم عن ابنه أو يسألونه عما كان، ويسرون فى أنفسهم أنه أبو اللص الذى سجنه وجلده الشرطى والقاضى. يسير فى الطريق يكاد يخفى وجهه عن المارة فكلهم يعرفونه. لايريد أن تلتقى عيناه بعينى أحدهم فهو خجل من ابنه ونفسه.

فاطمة فى البيت تدور تكاد تكلم نفسها عن ابنها الوحيد الذى فجر عندما بلغ الثامنة عشر من عمره. تخاف أن يزورها الأهل أو الأقارب والجيران خاصة زوجات مسعود الأخريات، فدائما يلمزنها فى الكلام حتى يصفر وجهها وتضطرب ضربات قلبها فتترك المجلس حائرة النفس والقوى، ومع تقدم عمرها والهم الذى ركبها إنزاحت قسمات الجمال القديم وتوارت بعيدا، لتحل مكانها علامات الغضب والحيرة، بل والذل فى بعض الأحيان، وضاقت بما هى فيه وكرهت الحياة والناس والبيت وزوجها أيضا، حتى أنها قالت له أجبرتنى يوما على الزواج وعشت حياة صعبة فكرهت نفسى والناس والحياة، وأنت أيضا أصبحت أكرهك بالفعل، وأتمنى الموت لأنال الخلاص مما أنا فيه بعد أن راح منى الولد وطعم الحياة.

وتمر الأيام صعبة، حتى أتى مسعود وجلس إلى فاطمة وقال

- لاحل لنا إلا أن نرحل إلى بلد لايعرفنا فيه أحد ونبدأ حياة جديدة هناك، فربما ننال بعض الراحة والعزاء.

قالت فاطمة - سيقولون عنا كثيرا، ولاأهتم بكلامهم، سأعلن أننا سنسافر، وسوف ينسوننا بعد قليل.

قال مسعود موافقا - سوف أبيع بعض الأملاك فانها ستدر أموالا كثيرا نعيش بها زمنا حتى ينسى الناس ماكان وربما يقدر لنا العودة يوما.

لم يكن تنفيذ خطه مسعود للسفر صعبة إلا عندما أعلن لزوجاته الأخريات أنه مسافر بعد أيام ومعه فاطمة، وترك لهن ما يكفى من المال لمدة كبيرة وأوصى أخاه أن يرعاهم فى غيبته التى ربما لن تطول.

سافر مسعود مع زوجته جنوبا حتى بلغ مدينة النافعة فى أقصى الجنوب وقابل عمدة المدينة، وقدم نفسه باسم آخر إتخذه لنفسه، وإختارأن يكون الشيخ عثمان فى البلاد الجديدة، وقال أنه يريد شراء متجر وبيت كبير ليقيم فيه مع زوجته. ولما رأى العمده أن الشيخ عثمان لديه ما يكفى من المال وثق به ويسر له الحصول على مايريد. وبدأ الشيخ عثمان تجارة كبيرة أنعشت النافعة، وصار يتردد بين التجار وذاع صيته وتنمو ثروته مع الأيام كما كان فى الزمن القديم.

***

ناجى ومدبولى وإخوانهم الجدد كانوا ينقلون نشاطهم من مدينة لأخرى حتى لاينكشف أمرهم، وظلوا يتنقلون عاما بعد الأخر حتى وصلوا إلى مدينة النافعة ليقيموا فيها.

قال ناجى لصاحب المقهى – مدينتكم هذه غنية وتختلف عن المدن المجاورة.
قال صاحب المقهى – لقد كنا مثلهم إلى سنوات قريبة حتى أتى الشيخ عثمان فأدار حركة التجارة عندنا، وصارت المدن والقرى تشترى منا وتبيع حتى ازدهرت البلدة.

– من الشيخ عثمان؟
– أكبر تاجر فى البلد.
– أين يمكن أن نجده؟
– ستجده فى كل مكان هنا.
– وأين يقيم؟

ضحك صاحب المقهى وأشار إلى ناحية قصر فخم تحيط به حديقة كبيرة بأسوار عالية.

- هذا.. إنه منزل الحاكم.
- لا.. إنه بيت الشيخ عثمان.
- ولماذا هذه الأسوار العالية؟
- إنه يخاف اللصوص، وعندما يتحدث الناس عنهم يتأفف وربما تغير لون وجهه، فإنه لايحب سيرتهم أو أعمالهم، ويدقق جيدا فيمن يعملون تحت إمرته أو بيته، فربما سرقه أحدهم قبلا. لماذا تسأل عن ذلك؟
- ننوى أن ندخل معه فى تجارة، فربما يرضى أن يتعامل معنا فتكون لنا معه صفقه أو أكثر.

فى المساء كان ناجى ومدبولى وباقى أعوانهما يدورون حول بيت الشيخ عثمان، ليختاروا أفضل الطرق لإقتحام المكان، ثم قرروا الإنتظار بضعة أيام ليتمكنا من وضع خطة جيدة.
درس ناجى ومدبولى المكان جيدا، واستطاعا أن يعرفا مداخل البيت، وأن الخدم جميعا يتركون البيت فى المساء، فكان ذلك مريحا لهم، وسيسهل المهمة تماما.

يسند مدبولى قدم ناجى ليرفعه، فيقفز أعلى السور ويدلى إليهم بسلم قصير من الحبال ليصعدوا عليه. يعبرون الحديقة الكبيرة ويصلون إلى البيت الغارق فى ظلام منتصف الليل، لايسمع لأقدامهم صوت. يتبادلون الإشارة ويدققون النظر فيما حولهم حتى لايفاجئهم أحد.
ناجى ومدبولى يدخلان وحدهما إلى المنزل. الباقون خارجا للحراسة والإنذار والمعاونة اذا لزم الأمر.

تسير الأمور على مايشتهى ناجى، فلم تكن المرة الأولى التى يشترك فيها لسرقة بيت، فقد تدرب جيدا فى عشرات المرات السابقة وأصبح محترفا بالفعل. يعرف كيف يؤدى عمله دون أن يحس به أهل البيت.
يتقدم ناجى ورفيقه على أطراف أصابعه يريا الأشياء ويقيمانها. يدوران من حجرة لأخرى حتى وصلا إلى غرفة صاحب البيت الشيخ عثمان وسمعاه يشخر بصوت عال قادهما مباشرة إليه.
يقول ناجى لمدبولى قف بالباب، وسأدخل وحدى، وأناولك مايمكن، أما إذا استيقظ الرجل فيمكنك أن تدخل لننهى معا الموقف.
يتسلل ناجى يتلفت، وفى حركة غير مدروسة يصطدم كوعه بالدولاب فيحدث صوتا يوقظ الرجل فيصرخ من هنا؟ من أنت؟
ناجى يلتصق بالحائط حتى يمر الموقف، ويظن الرجل أنه كان يحلم، ولكن الشيخ عثمان يلمح ظله على الأرض، فيقفز إليه هاجما ليسقطا معا على الأرض. يدخل مدبولى فى هذه اللحظة ليعاون ناجى الذى يستل سكينه ليغرسها فى قلب الشيخ عثمان ويضغط عليها بقوة حتى ينفذ فيه ويسكن جسدة على الأرض.
صوت امرأة يرتفع ينادى من هناك؟.. ماذا يحدث؟ فيعترضها ناجى شاهرا سكينه فى وجهها.

- انت لص جئت تسرقنا.
- ....
- ليس لدينا شئ لك سأمسك بك وأسلمك للشرطة.
- لن تقدرى أن تفعلى شيئا أيتها العجوز.
- هذا الصوت أعرفه جيدا.
أنت لست لصا يا ولدى.
أنت ناجى، وتشده نحو المصباح ناحية الحائط وتضئ لترى ابنها يقف أمامها وبيده السكين الملوث.

يذهل ناجى للتطور السريع، فلم يكن يتوقع على الإطلاق، ومشدوها تقوده أمه ليجلس أمامها بليدا، وإنسحب مدبولى بخفة إلى زملائه فلم يشعر به أحدهما.
- هل عدت إلينا. أخيرا ولدى أمامى؟
-......
- غبت عنا سنوات حتى كاد العمر ينقضى.
- .....
- ما الذى جاء بك فى منتصف الليل؟ لماذا لم تأتى نهارا؟
- هل نسيت مهنتى الجديدة؟
- حتى لو كنت لصا.. هل تسرق أباك؟
- أبى..! كيف؟

- نحن هنا من سنوات.
- لو كنت أعرف أن هذا بيت أبى لما جئت. وأخذ يرتعد والعرق يتصبب على وجهه.
- ماذا حدث؟ لماذا ترتجف هكذا؟
- دخلت هذه الحجرة وطعنت رجلا تصدى لى.
- طعنت من..؟ قم لنرى ماذا فعلت.
ودخلا معا الحجرة تسبقه بخطوة، وأضاءت النور لترى مسعود ملقى على الأرض والدم يسيل فوق السجادة يصبغها بلونه فإنحنيا عليه معا يرتعدان من هول الموقف فدقت على صدرها تصرخ مسعود. لقد قتلت أباك ياناجى.
انفجر ناجى باكيا عندما تأكد من موت أبيه، ولم يقدر أن يمد يده ليجذب السكين من صدره وتركه كأنما يشير إلى الإبن المذنب.
جلست فاطمة تبكى فزوجها مقتول أمامها بيد ابنها الذى دخل ليسرق، وقد ضاع منها الماضى والحاضر والمستقبل معا.
قفز ناجى فجأة وانتزع السكين من صدر أبيه وهم أن يذبح نفسه، لولا أمه لحقت وأمسكت به، وألقت بالسكين بعيدا واحتضنته يبكيان معا ماهم فيه لايدريان كيف يتصرفان.
قالت فاطمة – قدر الله ما كان. يجب أن نفكر فيما سنفعل. إن سبب كل هذا
هو سليم.
– من يكون؟
– هذا كلام يطول.
ارتفع فجأة من الخارج صراخ وكلام كثير فقالت لناجى أدخل حجرتى هناك ريثما أرى من الطارق. واختبأ ناجى فى غرفة أمه. ينظر من فرجة الباب فى الظلام ليرى بعضا من أهل القرية وقد أمسكوا بمدبولى وآخرين بعد أن فر الباقون فى الظلام.
– أمسكنا هولاء الثلاثة. رأينا واحد منهم يقفز من فوق السور. والإثنان كانا ينتظرانه، ولم يكن معهما مسروقات من البيت، فربما كانا ينويان السرقة ولم يستطيعا ذلك.
ومد أحدهم بصره فرأى الرجل الكبير غارقا فى دمه، فصاح لقد قتلوا الشيخ عثمان.
انتشر الرجال فى المنزل وحوله يبحثون عن آخرين، وبعضهم راح يستدعى الشرطة للمكان.

سارت جنازة الشيخ عثمان إلى مقرها يحيط بها أهل القرية جميعا، بينما مدبولى والآخرين قضوا ليلتهم فى سجن المدينة ليعرضوا على القاضى. ناجى كان حبيسا فى غرفة أمه يقتله العذاب والندم، ودموعه وبكاء أمه أمامه يقطع فى قلبه.
حكت فاطمة لناجى كيف أن سليم هجر الرامات قبل أن يولد بعد أن غضب لأنها تزوجت مسعود. وأن أهل القرية يعرفون أنه لن يعود إلا لينتقم. وكل ذلك من فعل سليم لقد دبر ماحدث.
– كيف ياأمى أنا لم أقابل هذا الرجل ولم
أعرفه يوما.

- الكل يعلمون أنه عاد لينتقم. يتحدثون عن قوة سحرة لقد تعلم الكثير فى الغربة وعاد إلينا شريرا فربما كان ذلك عمله.

* * *

إتخذ ناجى طريقة إلى الشمال ناحية الرامات يبغى أن يصلها. لايفكر إلا فى الإنتقام من سليم الذى خطط لكل ذلك فضيع عمره وجعله لصا مجرما ثم قاتلا لأبيه.
امتد الطريق أياما أربعة لايحس ناجى فيها بالتعب أو الجوع، ينام حيثما كان ويتناول مايجد حتى وصل الرامات التى يعرفها جيدا فى المساء. وراح لبيت سليم مباشرة ودخل دون أن يلقى السلام على الموجودين الذين نظروا متعجبين من شكله المخيف بشعره الكثيف الأسود ووجهه الغاضب ويده التى أشهرت سكينا كبيرا.
سأل - أين سليم؟
قالت سيدة - من أنت وماذا تريد؟
دفعها ناجى بشدة قائلا - أين سليم؟ وكان يرتجف من شدة الإنفعال فأشارت السيده بيدها إلى حجرة بعدما منعها الخوف من الكلام، فأزاحها جانبا وتقدم فقامت مسرعة تشده من ثيابه.
قالت - لاتدخل إن الرجل فى مرض الموت فلن يتعرف عليك.
قال - ابعدى عن طريقى. سأقتله قبل أن يموت ثم دخل ينادى أين أنت يا سليم؟
كانت الحجرة مظلمة فلم ير ماحوله جيدا، ولم يسمع صوتا واتضحت الرؤية فى عينيه، فرأى رجلا فوق السرير وجهه ناحية الحائط، فاقترب ولمس كتفه ثم جذبه ناحيته ليستدير،
قال - هل أنت سليم؟
- من أنت؟ قالها الرجل بصعوبة.
- أنا ناجى.. جئت للقصاص.
سليم لم يكن يدرك إلا الشعور بالانتقام، قاده سنوات فى مجاهل البلاد القرى والصحارى يبحث عما يقويه، يحس عدوه قويا صلبا بماله الوفير وحاشيته وخدمه الكثيرين، فلم يجد سوى الساحر إستعان به فتوهم أنه أصبح قويا بما ناله. فأصابه المرض بعدما أحس أنه وصل إلى ماأراد فرقد شهورا تنهش فيه العلةبعدما ضعف جسده من هوان السنين، ولم يجد دواء غير بيت أبيه يستقر فيه بين أمه واخوته يداوونه ويعطفون عليه فى ضعفه بعد غياب السنين.
تداعى إلى فكره يوم غضب قبل عرس فاطمة، وعندما هاجر بعيدا يروم النسيان والانتقام. تذكر الوحده والبرد والجوع وظلم الناس على مدى الأيام. تذكر يوم لقى الساحر وأعطاه الدواء، وعودته عندما وقف على رأس فاطمة وهى نائمة يصب فى إذايها عبارات الإنتقام فلم يشف غليلة ذلك، ولم ير أنه فعل شيئا.
قفز إلى خاطره كلام الساحر عندما قال إن الجزاء سيعود عليه.

نظر سليم فى عينى ناجى، وصورته تروح بعيدا لايكاد يحددها تتداخل فيما حولها، وتدور رأسه قائلا: جئت لتنتقم منى بسبب أمك، ولكن قدرة الله ألا تفعل فقد سبقت كلمته، وانتهى كل ما فعلت وتحقق ماأردت. ثم أردف لقد تأخرت يارجل. إن الإنتقام سيكون يوم الموقف العظيم.
كانت الكلمات تتثاقل على لسان سليم وعيناه تنغلق ببطء، ويده وفكه تسقطان لأسفل بعدما فارقت الروح جسده.
قفز ناجى خارجا يهرب من الموقف والمكان والناس. ودخل الحجرة أهل سليم بعدما رأوه خارجا من عنده مندفعا قال أحدهم أين الشاب الذى كان هنا؟
ونظروا فلم يجدوا أحدا وكان سليم راقدا أمامهم فأكتشفوا أنه مات.
قالت إمرأة– لقد قتله الرجل.
قال آخر – ما شكل هذا الذى تكلمون عنه؟
قال الرجل – ربما كان عزرائيل الذى دخل.
قالت – لا.. لقد كان يمسك سكينا.
وفحصوا جسد سليم فلم يجدو به أثرا للسكين فقالوا لقد كان عزرائيل بالفعل الذى هنا وامتلأ البيت بالبكاء والعويل.

* * *

ناجى هزته المفاجأة، ووقف مع نفسه يتذكر سوآته منذ ترك بيت أبيه أول مرة غضبانا لإتهامه بسرقة بضع جنيهات، فإضطر أن يرفع صوته ثم خجل من العودة، فقاده رفاق السوء إلى السجن والقتل، وبدأ يندم على ما كان. يحس أنه يفيق من حلم مزعج دام طويلا، وقرر أن يعود إلى النافعة وسافر يقصد بيت أبيه هناك.
وصل ناجى نادما بعد كل ما كان يرجو أن تهدأ به الأيام ويرى أن ذلك لن يكون إلا عندما يجلس بين يدى أمه حتى ترضى عنه. فقابلته حزينة تبكى زوجها وقد ظنت أنها لن تراه مرة أخرى.

قرر ناجى أن يقابل عمدة النافعة ليخبره أنه ابن الشيخ عثمان الذى مات من شهور.
قال العمدة – لم أكن أعرف أن للشيخ عثمان ابناء. كيف أعرف ذلك ولم يتحدث عنك أبدا؟
قال ناجى – أمى هنا وتستطيع أن تسألها عن كل شئ.
قالت الأم – ناجى كان مسافرا بعيدا، ولم نكن نظن أنه سيعود، والآن قد عاد وتراه أمامك.
نظر العمده مليا يتفحص ناجى وملامحة حتى إطمئن، وقال نعم كأنى أرى الشيخ عثمان فى شبابه، ولك الأن أن تحصل على ميراث أبيك الذى تركه لكم.

قال ناجى – أطال الله عمرك. وأخذ أمه وإنصرف.
قال ناجى يأمى – لابد أن نعود إلى الرامات ففيها أهلنا هناك.
قالت الأم – بعد السنوات نسينا الناس، ونسيناهم، ما الفائدة من العودة؟
قال ناجى – أحب أن أعيش هناك.
قالت الأم – فليكن ماتريد. فلم تبق لى أيام كثيرة فى هذه الدنيا بعد.

جمع عمدة البلد الوجهاء وأمرهم أن يؤدوا ديونهم إلى ناجى وأمه فلما أتموا ذلك حجز عشر المال للصدقه والمسجد وأعطى ناجى الباقى.
وقف ناجى ونادى أن كل هذا المال لأهل النافعة يقسمونه بين المحتاجين والفقراء ويوزعها العمدة عليهم بالعدل صدقة لروح الشيخ عثمان قال ذلك وانتحب بشدة وغطى وجهه بيديه، وراح بعيدا عن الناس يحس أنه هكذا يطلب الرحمة لأبيه ويكفر عن الذنوب التى إرتكبها خلال سنوات معصيته.
ولما عاد إلى الرامات جمع كل ما كان لأبيه فيها ووضع المال فى حجر أمه قائلا هذا لك لن آخذ منه شئ، فقد حزنت كثيرا يأمى وسوف أذهب لأبحث عن عمل جيد، ربما يخفف ذلك من ميزان ذنوبى، لعل الله يرحمنى.
قال ذلك ثم قبل وجنتيها ورحل، بينما دموع فاطمة تجرى فوق خديها فى حسرة.

***

شادى الكلمات

فى الجوار أناس كذبت عليهم أو شهدت لهم زورا وناصرتهم مدلسا. على الجانب نساء عرفتهن ومعهم أزواجهن وأولادهن يرنون فى انتظار. وخلفهم أناس صاحبونى سنينا جالسين يضعون الخمر والحشيش أمامهم ولا يتعاطون. هناك أكوام من نميمتى ووشـــاياتى كثيرة وحقوقا سرقتها صارت لى ولم تعد تهمنى. كلما مر وقت يزدحم المكان بالوجوه حولى وكلهم لهم فى عنقى شئ.

(من.. عصفورى الأخضر)

المحتويـــــــات

* * *

للكاتب

سور القاهرة الوردى	قصص	الهيئة العامة للكتاب
رقصة الجنـــــرال	قصص	مدبولى الصغيـــــر
أجنحـــــة البـوح	قصص (م)	جماعـــة الجيـــل
٥٠ قصـــة قصيـــرة	قصص (م)	كتـــاب الجمهوريـــة
أحلـــى ١٠ قصص	قصص (م)	كتـــاب اليـــــوم
اللعب بالديناميــــت	قصص (م)	كتـــاب اليـــــوم
الرقص على الألغام	قصص	كتـــاب اليـــــوم
حـــوار مع جنيـــة	قصص	الكتاب الفضـــــى
كنـــوز شمائـــــل	قصص	اتحاد كتاب مصر
فى محلة الأطهار	قصص	الهيئة العامة للكتاب
عندما تحلم راوية	قصص	المجلس الأعلى للثقافة

تحت الطبع

ليلة قطع النفس قصص

.. مسرحيات

ياناس يـــــافل

قنـاع الملك توت " للأطفال "

جوائـــــــــــــز

القصة القصيرة	دارأخبار اليـــــوم	١٩٩٧
القصة القصيرة	المحاربين القدماء	١٩٩٩
		٢٠٠٠،٢٠٠٣
القصة القصيرة	القوات المسلحـــــة	٢٠٠١

* * *

(م) كتاب مشترك

